حالات من الليل يغشاها النهار

ناصر الظاهري

obeikandl.com

obeikandl.com

حالات من الليل يغشاها النهار

ناصر الظاهري

obeikandl.com

حالات من الليل يغشاها النهار

ناصر الظاهري

مصمم الغلاف : عبد المناب
لوحة الغلاف : من مقتنيات المؤلف
الاخراج الفنى والتنفيذ: سكرين لاين

رقم الايداع : ٢٠٠٥/١٨٥٨٨
الترقيم الدولى: 977-407-014-3
الناشر: المكتب المصرى للمطبوعات

المكتب المصرى للمطبوعات

رئيس مجلس الإدارة
محمد حامد راضى

العنوان والتليفون
٥ ش مصطفى طموم
- المنيل- القاهرة
تلفاكس ٣٦٥٥٤٨٧

obeikandl.com

إهداء...

أميراتي الجميلات...

الشاهدات على حريق العمر...

الغافيات في ثنايات الذاكرة

obeikandl.com

obeikandl.com

اتـهاد ·· كليـج ·· بيان *

*الصحف اليومية: الاتحاد ·· الخليـج ·· البيان

obeikandl.com

obeikandl.com

حين تدور عجلة الدراجة الهوائية، يكون هناك كحل ليلي باق في عين الفجر، يخرج عبدالرحيم من الأزقة الرطبة، ورجلاه اللتان ألفتا (الزنوبة الخضراء)، تكادان تلمسان الدواسة.. يخرج كشبح ضبابي، يتلفح بغطاء يزيد على حجم رأسه، يعطي علب العمال المنزلية ظهره.. يسكت أنفه عن كل الروائح ينسل بلا ضجيج يعبر الطريق التي اعتادها ودخان سيجارته (البيري) خلفه كخيط رماد، جرس الدراجة الصينية يعلن عن مروره عند سكن زميله مرة ، ومرة عن توقفه في المطبعة.

يحزم صحفه.. يثقل بها الخرج المثبت خلف الدراجة.. تستقر فيه من غير أي التفاتة يشعل صدره بسيجارة أخرى، تنقص دلة الشاي كأساً، يتبادل وزملاؤه أحاديثَ شبيهة بقرقعة الحصباء.. يتحدثون عن موت عامل النظافة.. مازالت المطبعة تهدر وأصواتهم تزايد عليها، انفض جمعهم كمجيئهم، حاملين صحفهم.. رزقهم وعوالمهم المنسية

الآن يبدأ صبح عبدالرحيم.. أحاسيس بالانقباض والقرف.. ووجه يوم ثلاثاء مجدور، أي حزن هذا الذي يسرق منه فرح الفجر.. موت عامل النظافة فاروق.. فاروق هذا كان أسمر خفيف اللحم مثله، من مدينته.. ضغط جرسه الصيني.. واصل الرنين المعدني، كان يريد أن يطرد هاجس الدفن هذا.. أن يوقظ فجر المدينة الحالم.

لعبت قدماه الدورة اليومية، بدأ فجره باتجاه الأبواب الكبيرة الموصدة .. شعور باليتم يسيطر عليه كلما اقترب منها.. لم يستطع أن يألفها، ولم تكن لتفتح له .. يلصق مثل كل يوم أخبار الدنيا في صناديقها ويذهب، من غير أن تدعوه أو يجسرعلى رؤية يقظة الصباح في عيونها .. تحركه نحو مكانه المعتاد لم يكن

بنفس نشاط يوم أول شهر.. أحس بجريان زئبق في شرايينه ، ينضح من مسام جسده، يعيق حركة الدراجة ويثقل القدمين، حتى أعقاب (البيري) وقود الطريق لم تكن لتنزعه من الشرود غير المجدي.. من سماكة الملل.

إلى أن يستقر عبدالرحيم عند تقاطع الشوارع الأربعة تكون الشمس قد أبانت بعضاً من ملامحه.. نحيف، شديد السمرة كريشة غراب.. يغطي نصف بنطاله الأخضر قميص كان شديد الزرقة بالأمس.. لن تلبث أجيابه السفلى أن تتهدل من ثقل الدراهم المعدنية، سيبدأ من الآن تحريك الرأس وتدوير العينين، سيهادن كل الاتجاهات..عليه أن يترك الساحة حين تقفر الشوارع مثلما عليه أن يسبق عبور أول سيارة.

إسفلت الشارع يرتج تحت قدميه معلناً عن مقدم سيارات ستستقر في جوف المدينة، بعضها تبدو نازقة لا تحمل اللمعة الصباحية.. أخرى مثقلة بأعباء الدورة الشهرية المصرفية، تمر.. تقف عند قدميه.. وتبدأ الأيدي تنسل لصحف من حزمته- تبتسم له بعض الوجوه المصلية.. تناديه أفواه غير مفطرة، تلعن يقظة الصباح دفاتر التوقيع.. ووجوه مدرائها، فيما يرفع هو صوته منادياً: (اتهاد.. كليج.. بيان).

حين ينزل زجاج نوافذ السيارات العجلى المتوقفة، يعرف عبد الرحيم وحده ماذا تفضل هذه السيارة من الصحف؟ أو كم بقي لهذا الشخص من الدراهم العشر التي أعطاها إياه قبل أسبوع؟ أو أياً من هذه الشوارب المعقوفة تترقب صدور المجلات النسائية؟ تفاصيل صغيرة تسيّر يوم عبد الرحيم. هناك نظف ومضغ من العلاقات

غير المكتملة بينه وبين أشخاص وسيارات، بين ابتسامته وهزة رؤوس العابرين.. يستطيع أن يقرأ الشخص من يده كانت أشد ما تثيره اليد المنتفخة المشعرة ذات الخاتم ذي الفص الكبير، في حين تضحك جسده الأيدي المبرومة ذات الأظافر الوردية.. كان يُفرح قلبه منظر المرسيدس البيضاء التي تغوص في الأرض حين تتوقف، بقدر ما يضيق نفسه حين يغوص إصبع صاحبها في أنفه وكأنه يحك جوف جمجمته.

رقص عبد الرحيم بين هذه الشوارع لا يحرمه من لحظات التأمل الشبيهة بفضول الهنود للشيء الجديد.. دلة الشاي التي يحضرها يجب أن يعود بها فارغة وعلبة (البيري) الجديدة بالكاد توصله إلى منزله .. بين الحين والحين يرقب دراجته المسلسلة أمام كافتيريا محيي الدين، لم تدخل في نسيج أحلامه الدراجة الهوائية في الخليج.. كانت أحلامه ريفية كمالية فقيرة.

تبدأ وصلة الرقص الحقيقي المجنون لعبد الرحيم من الساعة السابعة حتى العاشرة.. بعد هذا يبدأ القفز بين الحين والآخر.. تمر به حافلات مدرسة يسمع في بعضها صراخاً، ضحكاً وأصواتاً كهديل ابنتيه.. يشيع كل السيارات.. عمومية.. خصوصية.. عسكرية.. وسيارات عطايا المرحلة كانت أمنيته قبل سبع سنوات عجاف حين ودّع زوجته وطفلتيه أن يرجع لهن بسيارة.. وأشياء كثيرة يحببنه.. خطف نظرة إلى دراجته المستقرة ومشت يده عكس منابت شعر لحيته غير الحليقة.

obeikandl.com

إشارة حمراء.. أبواق سيارات.. أصابع أيدٍ تنادي.. التفاتة بانورامية سريعة.. يثب أمام نافذة لامعة.. ينادي: ((اتهاد.. كليج.. بيان)).يتقفز.. تشترك كل حواسه في المرور الحلزوني بين السيارات.. في غضون دقائق التوقف الإجباري، عليه أن يقبض كل هذه الأيدي الممتدة، وقبل أن تفتح الإشارة عينها الخضراء، عليه أن يختم رقصة الأقدام شبه الحافيه.

يقف، يستعد لرقصة جديدة.. ينظر إلى ربطة الصحف المستندة على الرصيف الإسمنتي، يغذي حزمته الفارغة.. يتذكر.. مرة ألح عليه سؤال: ما جدوى هذه الصحف؟ وما سر العلاقة بينها وبين الناس؟ خاف من السؤال.. رماه خارج عقله البسيط حتى لم تذكره رسائله المستمرة.. كان يخشى أن تنتقص زوجته من قدر عمله هذا.

حين فكر في المجيء تصوّر أعمالاً كثيرة سيقوم بها.. لكن مهنة بائع الصحف كانت وليدة الحاجة ورهناً لعيني زوجته الفرحتين، وهي تعدّ له التليفزيون والثلاجة والخلاطة والملابس الملوّنة وأساور الذهب.. حين يرى فيها نشوة الاستحواذ هذه يطلب منها ألا تفكر في شيء إلا تربية طفلتيه.

هذه المرة.. كتب لها ما لم يستطع قوله عند سفره أو كتابته في رسائله الأسبوعية.. صارحها لأول مرة بأنه لا يقوى على البقاء أكثر من هذا، وأنه بدأ

obeikandl.com

يشعر بفحيح جسده آخر الليل.. وببرودة المدينة المتمنعة.. ويفضل الرجوع إلـــى ابنتيه ولها، وأن يكتفي بما يحصل عليه من أموال قليلة من فم مدينته مدراس..

تحسّس الرسالة ما تزال في جيبه، حينها أشعل سيجارة وتنفس بعمق.
يقف أمام سيارة صغيرة تنزل نافذتها بلا صوت، تسفر عن امرأة صـــيفية بهشاشـــة رغوة الحليب.. يبتسم لها من جوفه.. ترفع يدها.. تلقط مـــن حزمتـــه بطـــرف إصبعين صحيفة إنجليزية.. يلمح الإبط العاري.. ينتفض.. ترتبك قدماه.. يفر إلى سيارة أخرى، يصيح بلذة: (اتهاد.. كليج.. بيان).

يلعن هذا الاضطراب الذي يخل بوظائف أعضاء الجسد.. يجعلـــه يفكـــر فـــي زوجته.. مرة يشتهيها.. يستلذ بمواقف له معها.. أحياناً يراها كقطعة لحم نيـــئ.. يفكر فيها بسوء، يطرد هذه الشكوك ويلعنها في داخله.. يحن إليها، وعلى طفلتيه، ويقفز بفكره كقفزه بين السيارات، تتراءى له استدارة لحم كتف المرأة الصـــيفية وتندي عرق أنثوي في تجويف عشبي.. يركض نحو الرصـــيف.. يســـتقر بـــلا مؤخرة على الإسمنت تعباً.. منهكاً.
تتوقف المرسيدس البيضاء.. يقوم عبدالرحيم بفرح طفولي.. يبتسم لصاحبها غير المشغول بشوائب أنفه هذه المرة.. يخترق زمناً مضى.. يتذكر صبياً بلون القـــار، يلعب في برك المستنقعات و(الفانيلة) المســـودة والســـروال القصـــير المتفتـــق، ورحلات مدرسية لم تكتمل، ورفاق لا يعرف قبلتهم.

نظر للمرسيدس بعين المشتهي، بعد أن مسحها بقلبه تساءل في نفسه: لماذا لم يفكر هذا الرجل في شراء صحيفة أو مجلة ولو لمرة واحدة؟

Obeikandi.com

ضحك الرجل لعبد الرحيم، وانطلقت المرسيدس بسرعة مع غمـزة الإشـارة الصفراء حاملة ضحكة صاحبها، وحلم الامتلاك.. بدت في عينيه من بعيد كـاللبن الرائب.. كنعش أبيض تحمله رياح الظهيرة.. وضوءها الخلفي يكاد يبين وهـي تتوقف عند الإشارة الضوئية الحمراء.. الصفراء.. الخضراء.. الحمراء.

جمود عين تلتمع.. فرملة.. صوت آلات تنبيه.. فرملـة.. رائحـة احتـراق عجلات، شمس معطشة وأطراف باردة.. تمزق صوت إنساني.... تتـناثر صـحف.. أصوات آلات تنبيه.. مغلف رسالة.. علبة سجائر شبه فارغة، (زنوبة) خضـراء مقلوبة على الإسفلت.. تناثر عملة معدنية.. عين زجاجية.. ودراجة مسلسـلة عنـد كافتيريا محيي الدين.. إشارة حمراء.. صفراء.. خضـراء.. تجمهـر، حشـرجة أنفاس وأسئلة وأجوبة تخرج من السيارات (انهرس.. ذاب مع أحبار الصحف).

(تفحم من لظى ظهيرتنا.. إسفلتنا..عجلاتنا).

(يقال إنه استقر بجسده الهزيل على عمود في الصحف التي كان يبيعها).

(طار رماداً في عين المدينة التي لم تحبه ولم يعرفها).

عيون تناظر بلا التفاتة.. شمس تظلل الرؤوس.. ومدينـة تسـتفرغ السـيارات الصباحية لتستعد لغداء شرقي شهي.. إشارة حمراء.... صـفراء.. خضـراء.. حمراء.. حمراء.. حمراء..

حبيب الصايغ:

(موت بائع الصحف ((ماديكال))).

من كيرلا وهويته في جيبه.

وحبيبته تنقش بسمتها المعروقة في قلبه.

يسمعه رواد الشارع والمقهى والأرصفة المشنوقة.

يهمس فيهم كل صباح:Good morning.

ذات صباح مع وقف التنفيذ.

قتلته سيارة أجرة.

أعطاكم عمره.

في ذات الشارع.

عند الناصية المرة.

خلف البنك المكتظ بأرصدة السادة.

obeikandl.com

خليل قنديل: (كوتي):

((كوتي.. يقف منتصباً عند الشارة الضوئية، نحيل وأسمر، تلك السمرة التي تفعلها شمس آسيا في الجلد.. يمد ذراعاً نحيلاً، يحمل صحيفة وتحت إبطه يحمل رزماً من الصحف، يساعده جسده الخفيف على التنقل، وفي لحظة تندفع سيارة مجنونة ترتطم بجسد كوتي، يرتفع الجسد النحيل في الهواء قليلاً، ومن ثم يسقط على مقدّمة السيارة، ينزلق الجسد، يستقر أمام العجلات، يلامس صدغه الإسفلت الساخن، تتحرك عينا كوتي في محجريهما بكسل لحمي ومن ثم يغمضهما)).

محمود بوكاكيلات:

صديقه وشريك سكنه وغربته.

(قتلته زوجته.. والسيارة الحلم.. والمدينة التي لا تعرف الشفقة).

ريتشارد دين اندرسون:

(إذا توقفت أمام الضوء الأصفر للإشارة، فإن شيئاً مهماً قد يفوتك في الطريق، وإذا عبرت، فقد تتعرّض لحادث.. هذه هي الحياة).

obeikandl.com

التعويض

obeikandl.com

(ياكم الجز، وصلكم التعويض..).

باتت بيوت بارهوز(1) تضاجع هذا الحلم كل ليلة تستند على عتبة رخوة، تستلقي حتى ساعات الضحى، بعدها تظل الأفواه والقدور تغلي حتى تنتصف الشمس فيرتخون شبعاً ويبقون يتجشأون حتى يغلس الليل، فتكتحل البيوت بنوم ذي طعم جديد.

هدأة الليل لا تخدشها إلا سعلة تطن في بيت بن مرزوق. اشتغال محركات سيارات النقل بين الحين والآخر أيقظ الفجر مبكراً. بدأ مشبعاً بالرطوبة والكسل وعرق ضبابي يتندى على بيوت السعف، جلس بن مرزوق يسعل ويسعل حتى أحس بأنه سيتقيأ صدره، لعن هذه الحياطة(2) التي تقتلع أحشاءه وأسكتها بسيجارة، توضأ، بلل لحيته التي بدأ نزق الشيب فيها يعاند أعواد الحناء. تمتم بكلمات، لبس الصديري(3) أخفى صدراً مبطناً بسعلة تدمي حلقه. بدا من فرجة الباب بجسمه الهزيل وقامته الطويلة حتى تخاله ((عوانه))(4) تساقط سعفها وأطبقت يده اليسرى على قلبه حتى تحسبها ستخنقه، وتقوست أصابعها، وغدت شبيهة بعرق سمر يابس. أزلج الباب خلفه، رص عينيه ليرى بوضوح موطئ قدميه والعصا تسبق خطواته السلحفائية، عدل من وضع عمامته التي تخفي تحتها صلعة رعت منابت شعره، تلمس جيوب كندورته المتقرفصة،تحسس علبتي سجائر

1- بارهوز- اسم منطقة شعبية عُرفت بهذا الاسم لوجود محطة كهرباء فيها.

2- الحياطة: السعلة الشديدة.

3- الصديرية.

4- اسم نخلة طويلة جداً.

(بدون مصفى) وكبريتاً وجواز سفر وأوراقاً ونقوداً مبعثرة في جيوب ((الصديري)).

تتبع خطواته التي اعتاد أن يمشي عليها، قرع باب جاره بمقبض عصاه المعكوفة والمحناة، ردّد: (الصلاة خير من النوم)، بدأ ديك أم سعيد يصيح بتثاؤب، وانبعث صوت هاون كسول من بيت راشد بن سيف، صبّح على صومالي يبدو أنه سائق الشاحنة التي بدت فاغرة فاها، وصل إلى نهاية الحارة، واستدار يميناً صوب المسجد، رص عينيه، أخرج عنقه من مخبئه، ونبر بعصاته العلب الفارغة، آثار بلل، وتضاريس جلسة على عرقوب الرمل- ربما استمرت حتى ساعات الفجر الأولى- هلل، تنحنح، استفرغ مضغة خضراء أسكنها بقرب دجاجة تنقب الأرض، استمر في سيره وتهليله، سلّم على المؤذن الذي كان ممسكاً بخرطوم مياه، سأله إن كان سيؤذن، تطلع إلى ساعته، وأخذ يملأ خزان المسجد، وقال لابن مرزوق: (لازال على أذان الفجر بعض الوقت..).

فرق بعصاه بعض النعال من على مدخل المسجد، بسمل ودخل، أيقظ بعض النوّم في المسجد، صلى، أذن، سبّح وحمد، هلّل وكبّر، سعل، أنصت لتلاوة من مصل بقربه، بدأت عيناه تومضان بالنعاس، عطس أحدهم، فززه من السِّنة التي كانت تحوم حول جفنيه، اعتدل في جلسته عالج بعض

شوائب أنفه، نظر إلى الإمام، بعد قليل أقام الصلاة، بادله بعض المصلين تحيات الصباح السريعة، سأله بعضهم إن كان سيذهب إلى الدائرة لينهي إجراءات بيته، هزّ رأسه بالإيجاب، استكفأ الشمس وجعل يسير بخطوته المعتادة. رجل تتقدّم بانتفاضة حتى تستريح الأخرى لتحل محلها.

وصل إلى بيت سهيلة كعادته كل صبح وجد (الريوق) جاهزاً ودلة قهوة تنتظره، قالت سهيلة:

(كيف أصبحت اليوم؟ أمس ((شليت))(5) لك عشاء وبقيت عليك الباب ما حد فتح لي..).

(هيه.. أمس نمت قبل صلاة العشاء، لعن الله إبليس، ما وعيت إلى نصايف الليل).

(ها بعدك ما خلصت من الدائرة، الناس تسلمت ((غوازيها))(6) من سنين محد إلا أنت..).

(اسكتي يا سهيلة.. خلق الله أما خلق عند الدائرة، الناس محتشرة، حرام لو تعقين إبرة ما طاحت).

(اسمع، تريق الحين، وعقب بنمر على رجل شمسه هو بيودينا(7) الدائرة).

قربت له صحن خبيصة ودارت عليه بثلاثة فناجين قهوة، سعل (إيه يا

obeikandi.com

سهيلة ما يندرا بهم(8) وين بيعقونا، بيفرقونا) سعل حتى دمعــت عينـــاه، نشق، وبطرف وزاره جلى أنفه..

(مب بسك من السيجارة إللي حارقة صدرك).

(شا اسوي من يوم ودرت(9) الغليون والمدواخ ما ييــب راســي غيــر هالسيجارة، شا اسوي ما رمت اودرها) هزَّ فنجانه مستكفياً وقال:

(ها.. هياكِ الناس تراها نشرت من الصبح.. ياالله الين تتلبسين بعدك).

(ها.. كم حوشت؟(10) ((عشرة الكوك))(11) ثمانية الكوك، اثنى عشــر لك، عشرين لك..).

5- حملت.

6- فلوسها أو نقودها.

7- يصطحبنا.

8- لا ندري بهم.

9- تركت.

10- حصلت.

11- اللك لفظة أردية تعني مائة ألف.

obeikandl.com

بدأت هذه الأرقام تتطاير فرحاً من أفواه الناس، بدأ كل واحد منهم ممسكاً بالشيك يناجي نفسه ويتسافد مع أحلامه، يهدم؟ يبني؟ يقلع؟ يزرع؟ يطلق؟ يتزوج؟ يبيع، يشتري، يسكر؟ يتعالج؟ يسافر؟ يحج؟ بـدأ المكـان يضـج بأشباح الحقد والحسد وعفاريت التميز بدأت تتـراءى لأصـحاب الثـروة الجديدة، وأشياء كثيرة وجديدة بدأت تضيع لمجانين الغيرة.
صاحت سهيلة: (حسبي الله عليكم بتدوسون هالشيبه، اتقوا ربكـم، ابـوي أحمد شوف الكراني(12) خله يظهر له اسمه، أنا واياه مـا نـروم علـى الوقفة، عيّينا).

بدأت وجوه الموظفين تمتقع بلون أصفر، يحسون بمذاقـه المـر حـين يدفنون عيونهم في صكوك الصرف، ويشمئزون مـن وقـع إبهـام كبيـر متجلف.

ونادى الموظف بصوت يكاد يسمع: (فاطمة بنت هـلال) قـدّمت يـدها اليمنى فأشار إلى إبهام يدها اليسرى بصمت وقال بلغـة سـادية: (يـاالله مبروك تسعمائة ألف.. سعيد بن حمد بن خلف المهيري).
(بس اخوي من فضلك شوف النا اسم سالم بن مرزوق) قال أحمد زوج شمسه:
(يا أخي.. يا محترم، قلنا له ماله اسم عندنا فـي الكشـف.. روحـوا راجعوا اللجنة سعيد بن حمد بن خلف).
(اللجنة غير موجودة، ستجتمع بعد أسبوع) كان هذا جواب الموظـف بعد أن استمع إلى الكلمات الأولى من حكاية بن مرزوق، موظف آخر قال من غير أن يسمع شيئاً:

12- الموظف.

(والدي، تعال بعد يومين) آخر أعاده إلى الموظـف المختـص، وبـين موظف وآخر قضى بن مرزوق أسبوعين، لم يبت في أمره، إلا حين اشـتد قرع عصاه على باب اللجنة، وكأن الوجوه التي تقابله بابتسامات الشـفقة الآن ما هي إلا نفسها التي كان يلهث وراءها بهرمه منذ أسبوعين.

(الحقيقة، بن مرزوق نحن ما قصرنا، بغينا نسوي لك شيء، لكن بن عتيـق قال إن البيت بيته، وأنت ساكن فيه بهواه ورضاه، لكنه يبقى بيته، وهـو اسـتلم التعويض، قلنا له عاد سوي شيء حق بن مرزوق، تراه فقير، قال إن شاء الله).

ارتعشت يده المشلولة وتقدّم خطوة عرجاء (لكن هذا البيت، بن عتيـق ((مقلطنه))(13) عليّ من سنين، من يوم كنت أخدم عنده، وملكد طرى لي إنه يباه وكم عدلت فيه من استويت وأنا أبنيه اللي تشوفونه فيه الحين كله خدمتي وشغل إيدي والناس تعرف انه بيتي).

13- مهدى له.

obeikandl.com

(على كل حال يا بن مرزوق مر عند بن عتيق وما بيطيع فيك وانــت تعرفــه روحه عضو لجنة).

وببطء إيقاع مشيته تذكّر ((جرة الميداف))(14) وشراع محمل بن عتيق وهــو يطارح هواء الخليج أغنية عشق، تذكّر آخر رحلات هذا المحمل، تذكّر آخر عهده ((بالفطام))(15) و((الزنبيل))(16) قبل أن تشل يده. تذكّر خدمته لابن عتيــق.. تذكّر.. وتذكّر، وافتر جانب ثغره عن ابتسامة هرمة ونهم بشجن (إيه النواخــذا، نواخذا لو ييس البحر).

كانت أوداج بن عتيق تنتفض خجلاً وهو يرى وجه بن مرزوق يتفصد عرقاً على كبره، والكلمات تخرج منه شائخة تتعثّر كمشيته.

(عمي بن عتيق تعرف أنت الحين أنا كبرت وإيدي ما أروم أحركها، والشغل ما أقدر عليه وشوف لي صرفة، قالوا لي اللجنة البيت مب بيتك، بيت بن عتيق، قلت لهم انك مقلطنه عليّ من سنين ما صدّقوني، قالوا سر راجع بن عتيق، وأنا اليوم

14- المجداف.

15، 16- من أدوات الغوص الفطام مشبك يوضع على ا نف، والزنبيل هو السلة التي يجمع فيها المحار.

مالي حيلة غير الله وانت..).

(اسمع بن مرزوق أنا خبرت الدائرة عشان يعطونك ((جبره))(17) في ((جرن يافور))(18) ولم خلف أمرت لك بعشرين ألف، تفرش بهن البيت وتصرف منهن، و((ميواك))(19) تعال واخذه من البيت، أم خلف ما تطيع فيك، سر راجع الدائرة وشل جوازك ويك، وخبر الدائرة انك ياي من طرفي..).

أشفق على بن عتيق حين رآه يكذب ويكابر نفسه أطبق على عصاه، نظر إلى مقبضها فركه بأصابعه ورفعها، تنكّر أنه لم يستعملها إلا كعكازة، وضعها أمامه وقادته إلى الباب يقدّم رجلاً بانتفاضة حتى تستريح الأخرى لتحل محلها.

خريف 1987.

17- مسكن صغير عبارة عن حجرتين ومنافعهما.

18- اسم منطقة خارج جزيرة أبوظبي، انتقل إليها معظم أهالي بارهوز من ذوي الدخل المحدود.

19- حاجات البيت.

opelkandi.com

النفق

obeikandl.com

obeikandl.com

(لقد بُني هذا النفق في مكان لا يبلغ إلا بشق الأنفس، وفي زمان نعيشه ولا نحيا فيه، بُني بحجارة كانت أثافي لمواقد الثورة في منازل القدس العتيقة، وأمام ناظري جيفارا شبَّ هذا النفق عن الطوق.. كبر وعظم، طال وعمق حتى أصبح جيفارا يهيم على وجهه في غياهب ظلمته وصمته، لا يستطيع أن يحكي قصته وقصة بناء هذا النفق حتى لقي مصرعه على يد مرتزق أخن فصيح، وفجأة أصبح هذا النفق حقيقة بعد أن كان حلماً، وأصبح جيفاراً حلماً بعد أن كان حقيقة).

إمضاء بلا خجل
الواشي الاسخريوطي

طريق ذو اتجاه إجباري:

جنود بأحذية ثقيلة يتناثرون في ساحة المسجد، يفرشون الأرض لعساكر ببزات ذات أزرار ذهبية لامعة ونياشين تنفخ الصدور، ثملين فرحين بافتتاح النفق، يقيمون الصلاة وحدهم، يؤدون ركعة واحدة ويسلّمون، يقتادون الإمام، تظهر خلفهم جوقة فيها خلعاء غرباء، يغنّون، يتركون المسجد يضج بالناس، ينظرون إلى أعين آلات التصوير المثبتة على جدران المسجد، يخرجون مبتسمين وأسنانهم تلمع كأزرار بزاتهم وسط صخب المغنين واستغفار المصلين.

أهجم على المغني أهشم وجهه بخشب المنبر يساعدني بعض معارفي، يتشابك المصلون بالغرباء، بالجنود ذوي الأحذية السوداء الثقيلة.إمام المسجد يخرج وهو

opeikandi.com

يصيح: (هذا لغط، هذه فتنة والعياذ بالله.. أيها الناس.. أيها الناس هذه بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار).

أحد هؤلاء الجنود يأخذ بتلابيب الإمام ويرميه خارجاً وهو يصيح في وجهه: (اخرج واصمت) (أنا إمام هذا المسجد، فكيف لا تريدني أن أكون في الأمام) فينهره الجندي ويأمره بلغة عسكرية صارمة لا تبتعد كثيراً عن منطق أحذيتهم السوداء الثقيلة (إذن إلى الأمام يا إمام) وحربته تكاد تحك أضلعه تحبس دمه.

خرجت وصديقي أحمد من بين الزبانية والمصفقين وأنا أحمل أنعلاً كثيرة من بينها نعل أختي التي لم تسلم من الغارة التي مُنيت بها القرية الليلة الماضية.
أكداس الجثث المنتفخة تئن حرارة ورطوبة، تستنجدنا من العفونة، كنت أبحث عن وجه أختي بين أرتال الجثث، وأخي يصر في أذني بعمل انتقامي وأنا أتحاشى التحدّث إليه، كان في ساعة غضب خلتها لا تنتهي. شققت الصفوف هرباً منه ومن غضبه الذي ربما يفقدني إياه. احتمينا بجدران المباني، كانت قفزاتنا كضفادع الماء وسط زخات من وابل رصاص القنص.

عبور بأوراق خوف:

كانت هناك نقطة تفتيش وضعت حديثاً عند مفترق النفق.أمسكوا بنا قبل أن ندلف في ذلك الممر المؤدي إلى المدينة.كان سؤالهم على وجوه حرابهم المسننة المدببة: (هل تريد الذهاب إلى المدينة لتخبرهم بما حدث؟).
(لا الحقيقة إن عندي في صباح الغد عملية إخراج الحصى ولابد من أخذ حقنة

للتخدير الليلة مساء، وهذا صديقي أحمد، محارب قديم متقاعد، أتى مرافقاً لي وا...).

(انزل واجر الفحوص هنا، ومن ثم تستطيع الذهاب بعد ذلك).

- (نعم).

(ألم تسمع؟ انزل).

(أنزل! أين؟).

طرق طويلة بممرات متعرّجة، أجهزة مزروعة في كل مكان شاشات خضراء.. موظفون قابعون على أوراق تكفن وجوههم، خزائن حديدية رمادية اللون تكسو الجدران، طقطقة أجهزة تدلع بأوراق مخرمة وخطوط بيانية وجو بارد يغلف المكان.

(مد يدك وخذ لك قارورتين وأنبوبي اختبار عليك بملئها، لا تقل إنك لم تشم رائحة الشواء منذ يومين، لابد من عمل الاختبار اللازم ولو اضطررنا إلى عصرك).

وقفت على جهاز ونزلت من آخر، فتبين لهم بالصور أن لديّ بعض الحصى، قلبي سليم، علتي كانت في المعدة.. كنت مستعجلاً أريد الذهاب إلى المستشفى مجهداً خائر القوى.طلبوا مني أن ألوذ بالصمت فالفحص لم ينته بعد. صعدت على جهاز آخر، تم فحص النخوة عندي وجدوها عالية تساءلوا عن مصدرها، أجبتهم

بأن أبي لم يخلف لي شيئاً غيرها نزلت أنتظر النتيجة العامة من الجهاز الرمادي الكبير.

ظهرت على الشاشة عبارة (غير صالح للعمل..) ضغط على زر في الجهاز أصدر صوتاً وطقطقة، أفرز ورقة مطبوعة خطها يكاد يبين، رفع عينيه من خلف نظارته السميكة، تفحصني، نظرت إليه كأنني أعرف هذا الشخص، أين رأيته من قبل؟ أين رأيته؟

(رشيد.. غير معقول ألم تعرفني؟ عريف صفكم، أراك تشتغل هنا آه يا أيام الدراسة، خسارة أنك لم تكمل الجامعة.. أخي رشيد.. لا أعرف لماذا أنا هنا؟ أرجوك أن تخلصني بسرعة فغداً عندي موعد لعملية.. وعليّ التعجل بالذهاب إلى المستشفى).

(آه لم أعرفك لأول وهلة عذري إنني أصبحت كفيف البصر ما الذي فعلته حتى تظهر نتيجة فحصك سالبة)؟

(لم أفعل شيئاً ولا أعلم شيئاً، لقد قيل لي إنه إجراء فحص روتيني).

(آه.. نعم.. نعم أنت اسمك أحمد، أليس كذلك؟ يمكنك الذهاب) ورشق صاحبي بنظرة عرته.. تساءلت هل يمكنه البقاء معي ريثما تظهر نتيجة فحصي فنذهب معاً؟ رأيت التجهّم بادياً على وجهه.امتثل صاحبي وعبر النفق، أراه حيناً قريباً،

Obeikandl.com

وحيناً بعيداً، لقد كان النفق كتلة ضخمة من المطاط مجوّفة تتآكل من الداخل، تميع الأشياء وتذهب بالمعالم.

(أخي رشيد هل سأنتظر طويلاً؟ لقد جننت من الجلوس ربما بسبب الحصى ظهرت النتيجة سالبة، لكنني في الغد سأعمل العملية. لا أكتمك القول إنني خائف بعض الشيء من إجرائها لكنني أصبّر نفسي، مهما يكن يا أخي فللمشرط وجع، وإن كنت مخدّراً لكنني أعدك بأنني سأرجع أفحص ثانية حال انتهائي من العملية..).

(هل تستطيع الصمت؟ ما الذي تقوله هذا؟ إن العبارة لا تطمئن لو أنها صحيحة لهان الأمر، إنك من غير المرغوب فيهم، هل تفهم)؟

(نعم.. من غير المرغوب فيهم.. أراك تخوفني.. ما كل هذه الأجهزة التي لا نفهم منها شيئاً وأراكم لا تحسنون إدارتها، لقد كان سيحترق منك هذا الجهاز مرتين).

(صه.. هذه أجهزة استوردناها خصيصاً لنعرف منكم الصالح).

(صعب، صعب جداً أن تصدّقوا الأجهزة وتكذبوا الناس، وتكذّبوا أنفسكم أيضاً، وأصلاً الفرق بينهما في الظاهر قليل لأن هذه أحاسيس، مشاعر، عواطف وتربية رجال ندر).

(أجهزتنا هذه استوردت خصيصاً للكشف عليكم من الداخل).

(الحمد لله، الحمد لله سيظهر المبتلعون لأموال اليتامى.. خلاص ظهر الفرج)
نظر إليّ بعين جمدها الشر، صرخ الجهاز وظهرت ورقة مكتوب عليها العمل بخط باهت: ارتاح رشيد، وارتحت بعض الشيء ذهبنا إلى جهاز آخر وورقة أخرى.. النتيجة لصالحي.. وضع أوراقي على بعض الصور، النتيجة إيجابيـــة، استبشـــر صاحبي، تهللت أساريري، قال لي:

(كنت متأكداً من الأول أنك وطني أكثر منا هل "تحيد" إذاعة المدرسة؟ هل تذكر خطبتك التي وجّهتها إلى الخليفة الراشدي السادس؟ لقد أغضبت الكثيرين وأفرحت الكثيرين، يومها فقط عرفنا أن بعض معلمينا كانوا أصلاً معلمي فلافل ياه.. لقـــد أرغيت وأزبدت ذلك النهار).

(إيه.. حماس طلاب الثانوية لا غير.. هـــ.. هل أستطيع الـــذهاب الآن؟ لقـــد تأخرت كثيراً).

(نعم ستذهب بقيت صورة واحدة فقط.. استرح.. استرح).

(رشيد لقد أصبحت كفيف البصر، أنكر أنك في المدرسة كنت تشـــكو طـــول النظر، هل تذكر أول يوم لبست فيه النظارة؟ لقد تجمّع حولك الطلاب يتحسســـون عدسات نظارتك، وظهرت عيناك من خلف زجاجها وكأنهما محارتان).

ضحكت لكنه كان عابساً، كتمت الضحكة:

obeikandl.com

(آسف قل لي ما هي أخبارك؟ هل تزوجت وأنجبت، سافرت؟ كوّنت ثروة؟ أما زلتم في بيتكم القديم)؟

تململ وأظهر نفساً حارقاً فرق شاربيه (قم.. تعال.. بقيت.. صورة واحدة، ضع أوراقك هنا وقف هناك..) حشا الجهاز بأوراقي وصورة استطعت أن أميّز ملامحها بعض الشيء، لعب بأزرار حمراء وخضراء، صرخ الجهاز فزّ قلبي النتيجة سلبية.. جرب ثانية.. نفس النتيجة.

(رشيد أرني الصورة.. من هذا الذي أكن له كل هذه الضغينة؟ معقول! أقسم بالله أن جهازكم هو الذي يحتاج إلى فحص لا أنا، هذه صورة صهري، أمعقول أن أناوئ صهري؟ أرجوكم لا تخربوا بيوتنا.. ما بيننا مشكلات عائلية فقط لا ترقى إلى تكهنات هذه الأجهزة، ولا إلى حسابات وطنية ولا إلى.. ولا إلى..).

مادام هذا صهرك فسأمزّق هذه الورقة مقابل أن تزجي لي خدمة بسيطة).

(عيني لك.. يا أخي رشيد.. أؤمر).

(لا.. عيناك اتركهما لك تبصر بهما، أريدك أن تفقأ عينيّ).

(نعم..).

(ألم تسمع؟ افقأ عينيّ.. اعورهما.. اطمس وميض نورهما الباقي، أريد أن أترقى مللت هذا العمل.. هناك أناس أتوا بعدي وهم الآن يتربعون على كراسي وثيرة وأنا يخططون بي الشوارع، أريد أن أرتاح، لقد تعبت كثيراً وركضت كثيراً،

أريد أن يكون لي مكتب فيه مكيف مركزي وفراش رطب ودلال قهـوة (مقتـدة) وشاي تفوح منه رائحة الزعفران ورنين هواتف لا ينقطع).

(لم أعد أفهمك يا رشيد، لقد تغيّرت كثيراً حقيقة، كنت لا تحب أحداً، لكن مـن غير المعقول ألا تحب نفسك أيضاً).

(لقد تأخرت أنت كثيراً، فرغم تعليمك الجامعي لاتزال تجهل ما يدور حولـك، ظللت تحلم بالانتصار الملحمي وبأكاليل الغار تزين جباه الفرسان وبابتعاث رجـال من أسفار التاريخ).

(آه خسارة.. نعم خسارة كبيرة.. هل آتيك بعد انتهاء العملية ومعي (الميلسـم لأميل عينيك).

(نعم.. نعم.. ولكن إياك والتأخير، فشروط الترقية كل يوم تزيد شرطاً وأنـا لا أملك غير فتحتي هاتين العينين الباقيتين، أريد أن أقفلهما إلـى الأبـد.. أريـد أن أرتاح.. أرتاح).

(ترتاح، تنشد الراحة، كم هي حقيرة راحتك، لذلك لن تمتلكها..) قلـت ذلـك لنفسي وهممت بعبور النفق.

obeikandi.com

النفق:

(هذا النفق لم يكن كما رأيته حين عبره صديقي، لكن فيه عفونة جثث تغيّرت معالمها وعويل نفوس كانت تحلم بالشمس وحشرجات أطفال رضّع، وصورة رجل استطال عنقه كُتب عليها "مطلوب"، توجّهت إلى المستشفى، لقد تأخر الوقت كثيراً، أرجو أن يقبلوا عذري، آه كم الساعة الآن)؟

وقف أمامي واضعاً يديه على طرفي خاصرته، صرخ في وجهي: (لمــــاذا متـــأخر حتى الآن؟ كل الناس ناموا ماعداي أنتظرك وكأنك رجلي.. كم الساعة الآن)؟

(من أنت؟ ما أنت إلا فرّاش في هذا المستشفى.ثم عيب عليك يا رجل قول مثل هذا الكلام، أنت في مستشفى، أرجوك لا تتلفظ بمثل هذه الكلمات النابية، ثم أنك لست الموكل بي، أين الممرضة)؟

(سوزان.. أدري.. ترى هي التي طلبت مني أن أنتظرك، أما هي فنائمة فـــي الغرفة(67) اقرع عليها الباب.. (الله يتوب عليّ من هذا الشغل، دجاجي وبقري حتى الآن لم تتعش.. متى سيعوّر هذا الأبله رشيد، لقد وعدني بأن يشغلني عنده فراش).

ضحكت (هل تعرف رشيد؟ آه تذكّرت أنه يحتاج إلى فراش مثلك) خرج وهو يتقصّع.. ضحك وأغلق الباب بكل رقة وليونة وأنا أتمنى له التوبة على يد حجر يفلقه أو عبد يهوي به في مكان سحيق.

ودخلت الغرفة(67) .. قرعت الباب حين رأيت سوزان مستلقية على ظهرها، ثنت رجلها على قرع الباب، تكشفت، اقتربت منها متنحنحاً أغطيها؟ أوقظها؟ لكنها رمت بذراعيها العاريتين خلفها.. تنحنحت ثانية وأنا أغالب صوتي.. ناديتها بصوت رجوت ألا يزعجها.

(سوزان.. سوزان قومي أرجوك يجب أن آخذ حقنة التخدير أرجوك).

... ...

... ...

وتلوت كالحية ثم نفثت سمّها.

فتحت عيني على صرير المقاص وشجار الجراحين، حدقت فيهم بعينين يغالبهما الخدر: (عجباً أطباء ببزات ذات أزرار ذهبية لامعة ونياشين تبهر الأعين)؟

الجنود ذوو الأحذية السوداء الثقيلة يتبخترون في غرفة العمليات؟ والجوقة تنشد تراتيل الجمعة الحزينة.. (آه كم هو ثقيل رأسي، النفق.. النفق نفس الرائحة أين أنا؟ سوزان.. أين أنتِ؟ ما كل هذه المفاتيح التي تحزمين بها وسطك؟ يا لكثرة

أقفال هذه المدينة..) أشارت بيدها إلى الأطباء فانحنوا وأطبقوا عليّ كصمت ليل بهيم.

(لا.. لا.. أرجوكم لا أريد العملية، أشعر بدوار، أريد أن أتقيأ.. ضيق يلفني.. بلغم يملأ فمي.. غثيان.. غثيان.. أنا تعب سأنفجر من أنفاسي المحمومة المكبوتة داخلي، صداع يزلزل رأسي، يقتلع عيني من محجريهما.. أرجوكم، أتوسل إليكم لا أرغب في العملية.. سوزان.. أرجوك أحس.. آه.. آه.. أحس بأثقال الدنيا تتوسدني، أشعر بموت هذا العقل الذي أتعبني لكنني أريد الموت.. آه..).

(اصمت سنقلع لك أسنانك فقط لأنها أسُ البلاء، فوجودها بلا داع، وإلا أين هي من الحصى الذي في معدتك؟ لماذا لم تفتته قبل دخوله إلى معدتك؟ لذلك ارتأينا أن نخلصك منها لأنها غير عاملة كما ينبغي أن تعمل، هذا ما قرّرناه نحن، هذا أمر، والأمر يجب أن يطاع، ومن ثم ينفذ، ومن بعد يناقش، هيا كل فرد يقتلع ضرساً).

(آه.. إنه قطع الرأس، ذبول العقل، فقء العين، موت الفكر، سواد الوجه.. سواد الوجه).

غضب من أجل جيفارا:

كانت ضحكات سوزان تجلجل وهي ترى وجهي كالليمونة اليابسة وقد غار شنبي إلى داخل فمي.. كانت عيناها تضحكان دمعاً وهي تراني ألوك (لبانة الملائكة) وقد التهم فكاي أحدهما الآخر، كانت ضحكتها تصدع الدنيا وهي تودّعني عند مخرج النفق حيث اصطفت ثلة من الجنود ذوي الأحذية السوداء الثقيلة وأدوا لي سلام الشرف، وودّعني الأطباء، وعزفت الجوقة لحناً جنائزياً، خرجت وبي رغبة في ارتداء حذاء ثقيل أسود، أدوس أشجار الزينة، أحطم نقوش المباني، أنتزع الغناء من حويصلات الطيور، أعربد في دور العبادات، وأهجن الخيول، وأقايض بسيف أبي أتان حناء، ولا أبالي بسواد الوجه، كان أخي يسخر مني لأنني لم أوافقه على فكرته الانتقامية المجنونة، كان يقول لي:

(أنا أصغر منك، لكن اسمع نصيحتي هذه المرة: اترك الحصى في بطنك، ولاتخرجه، اتركه يتصلّب ويتحجّر، فستحتاجه يوماً للدفاع عن حقك، عن نفسك، عن عقلك).

هلوسة حلم ليلة جمعة 1987م

obeikandl.com

ثلاث حقائب على الرصيف

obeikandl.com

obeikandl.com

1- شنكر بابو

عاش شنكر بابو يحلم بالمنزل الذي يؤويه، والزوجة التي تشاركه اللقمة، لم يعد يتذكّر من طفولته غير أمطار جرفت البيت الذي كان يضمه وأباه وأمه وجدته العجوز، كان مبنياً من الخشب وجذوع الشجر، كان قوياً صلداً، لكنه لم يستطع الوقوف أمام الفيضان الذي عمَّ القرية فجرفه وجرف معه أباه وأمه وجدته العجوز وبقايا ذكرياتهم.

كانت رحلته إلى مدينة بومبي، حيث لا صديق ولا مال ولا عمر يحمل التجربة، في غضون أشهر عدة قطع الطريق إلى بومبي مع قطيع البقر والجاموس، توقف خلال هذه الرحلة ببعض القرى والغابات، لكنه لا يثبت إحداها، وصل شنكر بابو بومبي وودّع بائع البقر والجاموس فغمزه بخمسين روبية هي كل أجرته عن اعتنائه وقيادته القطيع، تمنى البائع لشنكر بابو حظاً أوفر في هذه المدينة، وأن يجد له مكاناً وسط ملايين الأفواه الجائعة.

صرَّ الخمسين في قطعة قماش كان يلف بها خصره، واتجه حيث لا وجهة له، قادته قدماه إلى محطة فيكتوريا العتيقة التي بُنيت لتبقى بقاء مدينة بومبي، ووسط ضجيج أبواق القطارات ورطوبة أرضية المحطة وثقل أحمال المسافرين والروبيات القليلة التي يكتسبها استطاع شنكر بابو أن يبقى على قيد الحياة سنين امتدت إلى

خمس وعشرين سنة، شاركه صديقه جعفر في أربع عشرة سنة منها، كـان يكبـره بسنين تربو على العشر، كان مأوى شنكر عبارة عن بطانيـة تلتصـق بجسـده المنهك التعب، وفرش من خيوط الجوت لعبت به يد غير ماهرة، كان الحيّز الذي يشغله بحجم قامة إنسان فقير معدم.

بقي شنكر بابو يحمل حقائب وأغراض وبقش المسافرين، لم يستطع أن يبني بيتاً ولم يجد من تشاركه فقره وحمله وحلمه.

عاش حمالاً لأغراض الناس من رصيف إلى رصيف، ولحلم لا يليق بإنسـان حتى نفق على الرصيف ولم يجد من يحمله.

obeikandl.com

2- لاكشمي

كانت ولادته قبل ساعات من بداية صافرة القطار المتجه مـن بنجلـور إلـى بومبي، وعلى رصيف المحطة وفي أرض مساحتها بحجم صندوق أجوف أبصـر النور، فدخل ساكن جديد إلى تلك المساحة الضيقة من الأرض التي تضـم أمـه لاكشمي وبقجتها التي هي كل ما تملك في هذه الدنيا والقـادم الصـغير.. بكـت لاكشمي حين رأت وليدها، وهو شبه قطعة لحم تلبط أمامها، دثرته بقطعة قماش كانت تحرس رأسها لسنوات عدة حاولت أن تتبين عينيه اللتين تخشيان الضـوء بعد فلم تقدر، أغمضت عينيها المتعبتين قليلاً هزّها صراخ وليدها الـبض فمـدت يديها وحملته.
ومع بداية صافرة القطار اندست في إحدى زوايا ممراته المكتظة.

عشرات الساعات تمضي والقطار يمر بطريق متعرجة، كولادته التي أخذت من أمه الساعات الطوال، كانت تعزي نفسها بصراخ وليدها وفرحة أبيه.حاولت أن تصلب عودها، وتمد رجليها المنهكتين، ضيق مساحة الممـر، وحركـة الركاب المستمرة، التي لا تهدأ لم يجعلاها تشعر براحة المرأة النفسـاء.. تسللت يدها إلى الصرة الرابضة تحتها كأنها مشـية حيـة الكـوبرا التـي تقدّسها وتبجلها أجلّ التبجيل، بعد عناء اصطادت يدها قطعة خبـز مندسـة بين أغراض شتى قضمت كسرة الخبز، تذكرت وقع خطى زوجها العائد في المساء وهو يصرخ عليها طالباً إنقاذه بلقمة عـيش.تسـمّر الـدمع فـي محجريها، والقطار مازال يترنح على سكة الحديد الطويلة وكأنه يهز وليدها في مرقده، يهدهده لينام، لكنها لا تنام، كانت تتمنـى أن يختصـر زوجهـا مسافات هذه المحطات، ويحملها ويحمل طفلها، تذكّرت ما كان يردّده علـى مسامعها من أنه سيشيب قبل أوانه، وسيقطفه الكبر قبل نضجه، كان يتمنى

أن يرى له وليداً يشد من عضده، كان يحتاج إلى أطفــال يشــحنونه قــوة وأملاً، ويضفون على كوخه بهجة وفرحة، كان يردّد أنه ســيموت حزنــاً وتعباً إذا لم يبصر وليدها الجديد النور، لذلك طلب منها أن تضعه في بقعة مقدّسة. لقد كفاه ما قاساه خلال السنين الماضية، لن يتحمّل أن يموت لــه أحد هذه المرة.لقد دفن بيديه ثلاثة من أولاده، كان يجر قدميه وهو ذاهــب لدفنهم، كان يتوقع بين الحين والآخر أن يرى زرعه المدفون وقد ارتــوى من خصوبة هذه التربة فإذا هو في نضارة زرع القمح وطول أعواد الذرة، كانت تبصر وليدها بين الحين والآخر، تتبين ملامحه، به شبه مــن أبيــه كبير، بدأ عليها الإعياء حتى لم تستطع أن تغفو، أحســت بتعــرّق شــديد، التصق ثوبها البالي بجسدها الذاوي وغابت عن الوعي.

أمام رصيف المحطة سلمت زوجها وليدها، لم تسعه الفرحــة، كانــت ضحكته تملأ وجهه- لو أبصرها مستخدمه لهلك حسداً وغماً- نفســها أن تقف على قدميها اللتين بدأت تفقدهما، لم تستطع أن تقاوم، تصبر فسقطت جنب بقجتها التي لم تفارقها أبداً، صرخ وليدها، ضحك زوجها، فهــذه أول مرة يسمع أنه يصرخ بين يديه.

3- رياض باي

ودّع رياض باي مدينة بومبي التي أكلت من عمره ثلاثين عاماً قضاها في خدمة المصالح الحكومية، لم يشعر بالألم والوحدة إلا مرتين حين توفيت زوجته رفيقة دربه قبل ثماني سنوات، ومرة حين تسلّم أوراق تقاعده.

استعرض رياض باي هذه السنين التي قضاها منكباً على أوراق ودفاتر وكشوف حكومية، يدقق فيها، يصحّح ما فيها من أخطاء، تساءل:

(هل تحتاج هذه الأوراق كل هذه السنين من حياتنا؟ أبي الوحيد الذي أحسده على

حياته، لقد عرف كيف يعيشها باختصار شديد، كان وطنياً غيوراً قاوم المستعمر بإصرار وعناد حتى أردوه قتيلاً، كانت الهند كلها تردّد اسمه والأطفال يحفظون قصص بطولاته، ترك السمعة الطيبة والمعاناة وعدة نياشين وأنواط. في أشهر زواجنا الأولى كدت أموت جوعاً مع ابنة الناس، ذهبت أريد بيع هذه الأنواط والنياشين، لم يستطع أحد أن يقدّر لها ثمناً، حتى لو رغيفين من خبز جاف.

إيه، ثلاثين سنة، لقد كتمت الحكومة بأوراقها وأخطاء موظّفيها أنفاسي مدة ثلاثين سنة، واليوم يكافئونني على خدماتهم بحفلة شاي وشهادة تقدير ووسام استحقاق، تماماً مثل أبي عندما استشهد أمروا له بالنياشين والأنواط، بينما لم يفكر أحد كيف ستعيش عائلة مات معيلها لسنوات قد لا تنتهي؟

Opelikanoil.com

حماس اللحظة، الآنية، قصر النظر، لقد كلفتني هذه النياشين الكثير، لقد جعلتني أعيش ثلاثين سنة في خدمة الحكومة من غير أن أمد يدي لرشوة أو إكرامية أو حتى هدية، صحيح أنني ترقيت إلى مناصب إدارية عليا، لكنني بقيت فقيراً، بعض الكتبة الذين تحت إمرتي أخجل من أناقة ملابسهم، وفخامة بيوتهم، أصبحت لا أملك غير هذه النياشين والأنواط والسمعة الطيبة وأوسمة الاستحقاق والكفاءة..).

ألقى نظرة أخيرة على الطريق الذي اعتاد أن يمشي فيه كل يوم، والأماكن التي يزورها أو يتردّد إليها، دكان ألبان، بائع الشاي على قارعة الطريق، أصدقائه، معارفه، الناس الذي اعتاد أن يراهم كل يوم بالصدفة، الحلاق الذي اعتاد أن يحلق عنده شهرياً ويثرثر معه يومياً.

وصلته برقية من دائرة بلدته الانتخابية ليمثّلها، تردّد كما كان يفعل سابقاً، لكن فكر قليلاً ثم رد عليهم بموافقته، وحدّد لهم يوماً لاستقباله عند محطة المدينة.. على رصيف المحطة، تسللت إليه رصاصتان وحقد أسود وغيرة عمياء.

يوليو 1987

شغب القائلة

obeikandl.com

obeikandl.com

بدأت عينا شيرخان كالهرتين تنقبان ستر البيوت، تتلصصان على مــا تلفظه السكيك، ترقبان تلك الاستدارة السوداء المتكوّمة عند باب المســجد تستشفان بياضاً يلمع من خلال هذه الغشوة التي تضربها حــول نفســها، تتخيلان تفاصيل أنثى تنبري وسط هذا السواد.

تراءت له جسداً لدناً ينتفض لشوق جديد، يستطيع أن يجاري صلابة ظهره، وغربة العامين.. يدها الممتدة للناس تقول إنها أربعينية مازال الجلد مشتداً يمنع العروق من البروز.

كانت خطواته الملتصقة المتقاربة تدغدغ صلبياء ظهره والاتساع الذي يأخذ مداه في ملابسه يشعره وكأن أحداً يمرجحه.تذكّر الخلية التي يقطنها، لقد سئم تلك الوجوه الملتحية المبللة دوماً بماء الوضوء، ولعن هذه الكــف التي ما برحت عصا، البحر حين يذهب إلى البحــر يبــدو نكــرة، لا أحــد يشبهه، هناك ملابس البحر تسخر من اتساع سرواله وطول قميصه، نفسه تتهتك بمرأى أجساد تتراقص داخل أغشية باستدارة قدح الشــاي، وأرداف تكتنز كل العافية، وتبقى العينان تسافران بعيداً بتلك الأحلام المستلقية حتى تدمعا ويظل يغرس يده في ذلك الرمل الرطب، ويحفر بشبق حتــى يرتســم على شدقيه زبد كأنه من خوار البحر. مج مضغة الــ -نســوار- كرشــقة

obeikandl.com

الدجاج، ومسح فمه بطرف يده، حاول أن يتبين تضاريس هذه الاستدارة، جلستها لا تسمح بأي بروز أنثوي، واللفة السوداء تميع كل التفاصيل.

قبل يومين حين تبعها انسربت في أول بيت واجهته، طال انتظاره، وطال بقاؤها ((ماذا لو وافقت أن تبيت معي اليوم؟ معي.. أين؟ الخلية؟ وأولئك العمال الذين ينطلون الرمل يشقون الطرق في الهاجرة، يأكلون بشهية جائعة، ويسافرون كل خمس سنين، الأمر يبدو معقولاً لو تجعلني أبيت معها، أستطيع أن أقوم بعدة أعمال لتكبير وتحسين بيتها، أستطيع أن أبني حجرة جديدة، أشذب الشجر، أصبغ، أستطيع أن أفعل كثيراً، لكن أين بيتها؟ كل يوم هي في بيت، ربما لا تملك بيتاً، أو لعل أحد الخيّرين رضي أن تسكن في إحدى غرف بيته المتطرفة المنسية، ألا تستطيع هذه الغرفة أن تؤوينا وتحتوينا؟ يبدو أنها ثرية، بخيلة، تكتنز الذهب، وترقد على الفلوس، ليتها تستطيع أن تغيرني بكل هذه الفلوس، سأبدو شخصاً آخر، زحام المدينة وتسترها، كفيلان بأن يجعلاني أتمتع بهذه الشخصية الجديدة، لكن هذا الثوب الذي يرتدونه لا يعجبني، أشعر بداخله كمن يريد أن يعتصرني، لا، لن أرتدي عقالاً، فقط عليّ أن أصغّر من حجم عمامتي هذه،سأبدو شبيهاً بهم، عليّ أن أخط على وجهي لحية مستديرة ستكون جميلة مع بقايا البياض الجبلي، لكن إذا كان لها عيال ربما لن تشفع لي هذه الوسامة، لتشتري لي سيارة أجرة، صحيح أنني لا أجيد السواقة

لكنني، ممكن، يقولون أشتغل سائقاً، ولا تشتغل طباخاً، وحدهم السائقون يعرفون فجور هذه المدينة، ماذا لو أتقدّم وأهمزها بعشرة دراهم، تراها ما تقول؟ لقد مددت لها مرة يداً فيها ثلاثة دراهم أخذتها وسط تمتمة لا أعرف كنهها، لكن للعشرة دراهم وقع أكبر، لأجرّب أولاً الخمسة دراهم، لا لا، العشرة أكثر، أغرى ليتها تسقط بإشارة منها تأتأة هذا اللسان، آه لو تواعدني في عز القائلة، بعد وجبة غداء، حينها أكون في قوة ثور، أو حين يجن الليل حيث يهدأ كل شيء إلا نفسي، أبقى أتململ في ذلك السرير الخشبي المعقود بالحبال، كم يبدو خشناً في تلك اللحظة، في ذلك الوقت أشتهي أن ينتشلني صوت أنثوي فلا أسمع إلا سعلة متحشرجة أو هذيان يوم عمل شاق أو أصواتاً تأتي من أغوار أكل آخر الليل، اليوم لن تفلت مني سأترصد لها، سأستوقفها ولو على حائط أو في إحدى هذه السكيك المدهلزة، أو ذلك المرآب الذي تسكنه الكلاب)).

اقترب شيرخان يستطيع الآن أن يعد الخطوات المتبقية عن الوقوف على رأسها، ثنت رجلها الممددة، حين هم فوج بدخول المسجد غطت الزري الملون الذي يخنق القدم، أبصر لمعاناً يختفي تحتها، تذكّر الممثلة الهندية التي تغرق مع البطل في أغنية تحت المطر، تذكّر تضاريس السروال البنجابي التي خطّها المطر، وذلك الجديل الذي ازداد سواداً، قطرات الماء المتندي على ذلك الوجه المشتهي، تمنى لو استطاع أن يمسك

obeikandi.com

ثنيات ذلك السروال بأطراف أصابعه فيفك التصاقه الرطب عن ذلك الجسد البض، تبدو التفاصيل تحت المطر أكثر وضوحاً وفتنة، لاحت له تلك الاستدارة وهي تتململ في عباءتها، أحس بأنها ليست بخفة تلك الممثلة، تذكر مشهد الممثل وهو يتسلل كالحية فوق بطن الممثلة، أحس بلدغة يسري سمّها بين عينيه، كانت دحة قوية على جامعته مثل عادة زملائه حين يلتقون، سأله صاحبه إن كان تسلم رسائل جديدة من أهله، هزّ رأسه بالنفي، ومشيا معاً خطوتين، بعدها ركض صاحبه على صوت بوق تنبيه سري من سيارة شحن صغيرة، انزرق بين جموع العمال، نظر إليه شيرخان ضحك وانثنى يلتقط ربطة الـ ((نسوار)) التي رماها له صاحبه، نظر نظرة إلى الخلف حيث الاستدارة (يا لبقائها الممل)، رجع الخطوتين اللتين مشاهما مع صاحبه، المصلون يخرجون، قليلون من يمدون لها بدرهم، تناول المضغة ودسها تحت شفته السفلى أحس بخدر يطرق العينين.

((لقد طال مكوثها يجب أن أنتظرها حتى خروج آخر المصلين، أعرفها، لن تبرح مكانها إلا مع آخر نعل يوطأ.. بها.. بها طول ينم عن جمال أنثى، سأتبعها متخفياً، العشرة دراهم لن تجدي نفعاً، سأستوقفها حين تلوح فرصة التفرّد والخلو، يجب أن أكون لطيفاً ملساً فهي أنثى في الآخر، ليت هذا السواد يشف قليلاً فأستبين وجهاً، عيناً، فماً، أنفاً، ما يدريني ربما

تكون مثل ريحانة حين تبدو متنقبة بـــ (الشادور) تصـبح كسـائر نسـاء المدينة، وحدي والعارفون فقط يقدّرون قيمة ما تخفيه (ريحانة) تحت هـذه الملابس الغلاظ، لكم أشتهي ريحانة الآن لو أراها سأضوي فرحـاً، رنـة خلخالها مازالت تطن في أذني، تسكرني، أريج عرقها الذي يغمـر زغـب الوجه، مطرح الشنب تعرف هي وحدها كم يثملني)).

حين تميط النقاب كم تبدو مسفرة ومسرفة، للمرأة رائحة تميّزها، وهذه الاستدارة النسمة لا تحمل لي عطراً منها، والسكة لا تبقي لي على عبـق، ترى أي نوع من النساء هي؟ ربما لو أراها مبتلة.. ترتدي ثوبـاً أحمـر؟ تختزن كل الروائح لي؟ حينها فقط، قد تذكّرني أو تنسيني ريحانة، ترى أي حضن يضمك الآن؟ وأي قلب تفجرين؟

وأنا عليّ أن أفجّر هذا الموقف، لقد تعبت، أشعر.. يجب أن أزيد مـن تباعد خطاي، عليّ أن أدركها عند ذلك المنعطـف، بعـدها يسـهل علـيّ استدراجها إلى ذلك المرآب اليتيم.وقت القائلة أهل هذه المدينة ينامون، بعد خلطة السمك والرز اليومية سأحتاج إلى ساعة من الزمن للخلوة وإلا حيف على هذه الثلاثين، وهذا اللحم المعلف منذ زمن الفاقة، ربما تصرخ؟ الأمر سهل، ربما تقاوم بيديها، الأمر هين، فهذه العمامة تطويها من ساسها إلى رأسها، قد لا تحتاج إلى كل هذه الاحتمالات، سأسـتميلها بالـدراهم أولاً، سأعرض عليها مبلغاً من المال، لكن ماذا لو رفضت، صرخت؟ هربت؟ تباً للثلاثين وللعافية إن هربت سأستوقفها وأنا أخرج النقود من جيبـي، هـا، سأضع النقود في المخبأ الفوقي لتكون في متناول يـدي ونظرهـا تمـام،

ستقف وتأخذ النقود، كيف أعبّر عن مرادي؟ لن تفهم ما أقول. ستفهم، إنه الأمر الوحيد الذي لا يحتاج إلى فهم كبير، عطش العين يفصح ويفضح، ربما تكون عوراء، ويأتي حظي على العوار، ستفهم سأمسكها من يديها، ستشعر بسخونة تعرّقي لا.. لا سأمسكها من تحت إبطيها.

ارتجت يدا شيرخان كسيف مسلول حين صرخت، حملها بخفة وسرعة، بدت ثقيلة جداً، ألقى بها على ظهره كعادته في حمل شوال الرز، خطا خطوتين متعثرتين وارتمى معها في المرآب، واجهها، صرخت برجولة كممها بيديه، وجد مقاومة شديدة منها، حلّ ربطة عمامته، دفعته بقوة في صدره، توقف برهة، أشار بيديه لتهدئتها، فجالت بيديها تريد أن يفسح لها للخروج، اقترب منها بأنفاس تتصاعد وهمهمة حروف بدائية نشجت ويداها تقولان: "اتركني"، أيقن أنها خرساء، أخرج من جيبه بقية نقود مختلطة بأوراق وقدّمها بابتسامة تتراقص على محياه، جفلت منه، قدّمها ثانية وأومأ لها بترادف الوسطى على السبابة، أطلقت صرخة لا تريد أن يسمعها إلا هو، تقدّم لها بتودّد، أبصرت عيناها لوحاً خشبياً معفراً بالتراب، انطلقت نحوه، أمسكها، رماها في حضنه، عصرها، تخلصت منه بقوة جنية، فاجأته بلكمة قوية في وجهه، شعر بنجوم تتلألأ في سماء عينيه، وحرقة دمع، رفع يده، ووجّه لها صفعة، عاجلته بلكمة أخرى، أراد طرحها أرضاً لم يستطع، حاول أن يزيح بقية هذه الغمامة السوداء، تلقى ضربة أخرى، بُهت، نشب بها، طرحته أرضاً، بركت على صدره، وأوسعته ضرباً، فغر فاه، شعر بانتفاضات جسده، حاول أن يستجلي صورة الوجه، يستبقي لذة الألم ثقل غير عادي يكاد يتلاقى بأضلعه، دُهش حين سمع كلمة أردية تسب أخته، وتلعن أمه والكفن الذي سيوارى معها، وخزته نبرة الصوت، أرجفته اللحية المخضرة، جمدت عيناه على تلك الاستدارة وهي تعيد ترتيب ما خلفه العراك، بدأت تحشو منطقة الصدر، وتثبت الشعر المستعار، وتدس الشنب خلف برقع لا يظهر إلا العينين الكحيلتين، ثارت ارتعاشات جسده، حفر الأرض بأظافره، هدر فاحت منه رائحةكرائحة نبات النخل،همد، فغر

فاه، وتيبس على شفتيه زبد كحنة البعير، بينما الاستدارة الســوداء بــدأت تغيبها تلك السكيك المدهلزة.

ربيع 1988

obeikandl.com

obeikandl.com

طويرة الجنة

obeikandl.com

obeikandl.com

طوال حياة ((ولد مريم)) والتي أدركنا جزءاً كبيراً منها، كان رقيق القلب، عطوفاً، خجولاً، يحمر وجهه إذا ما ألقى السلام على أحد، يحن لكل شيء يألفه، حتى لو استظل بفيء شجرة، كان يعز عليه مفارقتها، كثيراً ما كانت تنحبس الغصة في حلقه، وقلّما يبكي بدموع. كان صاحب حمام وقطط وكلاب، لا ينام إلا بعد تفقدهم وإطعامهم، قليل الكلام، يعطي ما في يده، عكس طبع الأطفال، كان لا يخرج من بيته إلا مكتحلاً متنعلاً مستحماً. كانت نظافته هذه تغيظ أعوان إبليس- كما كان يسمي صحبه- تذكي نار وسخهم الداخلي، كانوا يلصقون به تهمة الضعف ولين النساء، ورغم محاولاتهم في أن يجاريهم في لعب الكبار، وشقاوة العود الطري، إلا أنه بقي كما يشتهي هو أن يبقى، كانت تعليقات أعوان إبليس بأنه سيعيش مئة وخمسين سنة من غير أن ((يكح)) أو يسعل، محافظاً على نظافة رئتيه.

مرة تجمعوا في دكان الشيرازي، أخذوا يلهونه ويسرقونه أكثر مما يشترون، فلما همَّ بمحادثة حسين صرخوا في وجهه، ورأى التهديد في أعينهم والوعيد في أيديهم، خرَّ مرتبكاً، دسَّ في يد حسين روبيتين بحجة أنه اشترى منه يوماً ولم يدفع، لم يستطع حسين أن يتذكّر ذلك، لكنه أخذ الروبيتين.

كان يقول لأصحابه: ((بإمكان الإنسان أن يتجنب كثيراً من المشكلات بقليل من التضحية))، لم يهتموا كثيراً بذلك، بل لم يحاولوا أن يفهموا، كان دائماً يختلق للمسيء عذراً، فكما كان يسمي أصحابه ((أعوان إبليس))، كانوا يصفونه بـ

((طويرة الجنة)).

يوماً ساقه أصحابه وأجبروه على الذهاب معهم إلى ((كرندوة))، وأدخلوه عنوة إلى بيت إحداهن، لكن شعوراً بالخوف والتقزّز بدا مسيطراً عليه. حين أبصـــرتها عيناه.. طافت بباله مخيلات نساء، لم تكن هي إحداهن.. شكلها كبرميل بائع الكاز. ثوبها اللامع الملتصق بجسدها المتغضن وأسنانها الذهبية الضاحكة، كانت حاجزاً أمام أية رغبة قد تجنح به.. حاول التنصل، الهرب، لكن الشماتة وضحكة عيـــون أعوان إبليس، جعلته يقرّر على استحياء.. أعجبته شابة آتية من الساحل الهندي، زفّ إليها.. كان يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى، لكن في داخله كـــان هنـــاك شـــيطان أخرس، أعان صاحبه عليه حتى دلف إلى ((الصندقة))المعتمة.. للماء فيها رائحة، والأرض ثرى دائم.. جلس معها قرابة الساعة.. استطاع ببعض الكلمات الأوردية التي تعلمها من الأفلام الهندية، ومن تردده على مطعم باسم الله أن يعرف قصتها، تذكّر عدداً هائلاً من الأفلام لا تختلف عن سير حكايتها.. أراد مساعدتها.. تعليقات وضحكات كان يسرّبها الباب الخشبي

المشقق.. جلستها المتربعة كانت دعوة مجانية، لباســـها البنجـــابي الحريـــري، استصرخ الشارب الذي بدأ يطر فوق شفة كانت ترقص وجـــلاً، والعينـــان

المجربتان حركت فيه بعواث نشوة كانت لاتزال بكراً.. خرج على قــرع صـــاحبة ((الصندقة)) وكلمات أعوان إبليس: ((شو ما صدّقت.. محروم طــايح فـــي عصيدة..)).

ضحك منتشياً وسط غمزاتهم.. أطرق يستصيخ السمع، تمنى لو تبقـــى تلـــك اللحظة، تمنى لو تدوم.

كثرت تردّداته على نيتو.. بدأ يكلمهم عن حبه لها، وأنه يسعد بها وبرؤيتها..

ذات يوم جاء كعادته وكعادة والدته، حين تصر له نقوداً من حافظة أبيه.

ضحكت صاحبة ((الصندقة)) ((نيتو ما في.. نيتو يسير بلاد.. في زواج)).

((سافرت.. ذهبت تتزوج بعد أن جمعت مهرها))

قال ذلك صديقه وهزّه بعنف، ضحك، بكى، تلبسه حنان أنثوي..

((حبيبي.. شوف هذه جديدة.. اثنين يوم قبل. صغير)).

تذكّر لحظات، وتذكّر الخاطر الأول ((ماذا لو تزوجتها.. هناك أبي وغضب قد لا ينتهي.. هناك أمي ودموع قد لا تجف.. نيتو يا لون الشاي الممزوج بالحليـــب بمقدار أعرفه)) .. انبرى له صحبه، ((نراهن أنه يفكر ليش ما تزوجها.. ألم نقل لك إنك لست رجلاً.. أحد يتزوج..؟)).

ظلّ يتذكّر نيتو بين الحين والآخر..

المسنون الكبار، أصدقاء أبيه كانوا يقولون: ((ما ندري على من طلع ولدك هذا.. والله ما شابه عمه.. تحيدون يوم فلح واحداً رطبه، شفه يسرقها من نخله.. حرام انه ولدك جان قام وجد له عذج..)).

كبر ولد مريم وأصبح ينادى باسمه الصريح الذي اعتاد أن يسمعه في الفصل.. تزوج.. قضى شهر العسل في الهند، لكنه شهر لم يكتمل، لم يستطع البقاء فيها.. هناك الفقر مقدّس والموت مقدّس، البقر مقدّس والحجر مقدّس، عدا الإنسان.. كان يراه متكالباً عليه الجوع والفقر والمرض والجهل والإنسان نفسه.. كانت جُل مصاريفه تذهب إلى الطلاّبين، وما أكثرهم في بومبي، لذلك قرّر العودة، وألا يرجع إلى هذه المدينة الولود الجحود.. تذكّر نيتو.. نظر إلى زوجته واختلق حديثاً شبيهاً بلوك المطاط..

أسرار أحمد السائق الذي كان ملازماً له في الحل والترحال أخبره((أن بومبي مدينة تحمل متناقضات الدنيا، فمن يكسب ((آنه)) يستطيع أن يقتات بها، ومن يكسب الملايين يستطيع أن يسرق بها)).

عاد، عاش كأي حيوان ثديي لبون، لزوجته وأولاده وللناس، يمارس الواجبات اليومية، يذهب في فرح هامس حد الإنتشاء.. يغوص في حزنهم حد الهلع.

وفي ليلة وضحاها.. هبّت رياح عاصفة.. استفرغت حمماً سوداء.. ذرت ما تسحبه في العيون وغدا ((كويل الجن)) يمزق غشاء طويرة الجنة، الذي ضربه

openkandil.com

حوله بعنف.. كان ينزع الغلالة الرقيقة التي تلبسها زمناً، جاء وقت لم يكن يحسب له.. استمطر أهل البلاد، درت وحلبت، قامت وقعدت، ضحكت وبكت..

جاءت أفواج وأفواج، كلها طالبة من ابن مريم أن يبقى بالصفة نفسها، وباللقب نفسه، أن يبقى نظيفاً يتنفس برئتين صافيتين، معافى يمشي بساق خالية من الجروح والكدمات، محافظاً على التوازن المثالي، لا يحمل شيئاً بيديه، لا يرهق عقله بأمور قيل له إنها تقصف العمر، أن يعيش مدجناً، فرحاً بالأشياء التي يجلبون.

جاء بيكر من الميناء الذي بدأ يتسع ويتسع، جاء حاملاً مفاتيح الحظ طالباً فقط السيولة، ليدخل هذه المفاتيح في ثقوب المدينة، وليدخل طويرة الجنة في الجنة الحقيقية التي لم يعرفها، طلب بيكر منه الفرجة والفرجة فقط، قام.. لمعً المدينة.. زينها.. تبرجت له، أيقن ما يعني فراش حريري على سرير مائي، أو ما تعني أطقم السيراميك المذهبة لنساء كن يغبشن بأباريقهن قبل الفجر حد البحر.

بدأت ((كو))! تدخل في كل مشروع يفتح، كان طويرة الجنة يكره الكلمة المنتهية، بـ ((كو)) هذه هي البداية، لكن بيكر طلب منه قراءة العقد المبرم بينهما والفرجة فقط، وبعد قراءة العقد كان أكثر تمسكاً بها من بيكر نفسه.

ازداد سمنة، وزوجته ربت خدماً وحشماً وشحماً، فرغها للبيت وللتفريغ الموسمي، بدأ يعن عليه طيف نيتو.. تفاصيل الجلسات في ((الصندقة)) الرطبة

المظلمـــة.. وغــوص قدميـــه فـــي الرمـــال الجنّازيـــة التـــي تحـــيط بحارة((كرندوه)).وتلثمه بالشماغ الذى يحيط بالرأس.

هاجس النفس المشاغب بدأ يسكته بكثير من التبريرات، وبكثير مـــن غيـــاب الوعي الوقتي، في حين بدأت ضحكته تأخذ الشكل الجديد.. متذكّراً ذلـــك الـــزمن وكيف كان يحوم حول صندقة نيتو متلثماً علادة الرجال حـــين يجبـــرهم زمـــنهم الشقي على أن يدلفوا في تلك الحارة.

ترهل طويرة الجنة، تدفنت عيناه، وحبلت بطنه بالكثير، بدأ يتدحرج في مشيته، لم يعد يعتني بنظافة رئتيه أو دقات قلبه، كان يحسد بيكر على صلابة العود وتورّد الوجه والشعر الذي يشبه شعر طالب ثانوي.

كثر حلاله وماله، كثر نومه، كثر سفره، كثرت همومه، كثرت حاجتـــه إلـــى أعوان إبليس، كثرت حاجته لهاجس اللحظة الأولى.. الرعشة الأولى.. لنيتو.

العويد

obeikandl.com

obeikandl.com

أخبرني من كان يكبرني، بأن رجلاً جاء مرة، وفي يده عود شجرة ((ســدر)) غرسه في طرف بيوت الطين التي تجاور النخيل.. وذهب.

قالت الناس: ما هذا العود اليابس؟!

آخرون استصغروه وقالوا: ما هذا العويد؟!

تزوجت صبايا، ورجالهن عادوا يعملون في قوات ساحل عمان، حبلن ورزقن بأولاد وبنات، بدأوا يتأتئون.. يمشون، يلعبون، تحت ظل شجرة صغيرة.

النساء حين يذهبن يملأن جرار الماء، يقلن: ((كبر العويد)). والرجــال حــين تتبدل سراياهم وكتائبهم، ويستقرون يقولون: ((والله كبر العويد)).

السدرة الكبيرة التي تسكن المدرسة النهيانية القديمة، وجدت وليفاً يكبر كــل يوم.. والعجائز اللاتي يراجعن مستشفى كندي القديم يجلســن، يُبــرزن تحتــه، يعرضن بضاعتهن، من براقع وعطور وأدوية شعبية، يمــلأن المكــان حكايــات وثرثرات لا تنقطع.. الأطفال والفجر جزء من عتمة الليل، كانوا ينهضون، لالتقاط نبق العويد، يملأون به جيوب ملابسهم المدرسية. حمارة خميس بن جمعة، كان العويد مرصعاً لها، والصبايا كانت مراجيحهن تتدلى من جذوعه، صــار العويــد شجرة كبيرة، يستظل تحتها الناس، وســيارات الجــيش الكبيــرة، والعــابرون بقوافلهم، غدت ساحته التي يحجب عنها شمس العــين الحارقــة مرتعــاً للعــب الصغار.. لذبائح الضيوف، ومراجل الأعراس، ومن أغصانه كانت العصا المحبّبة عند المطوع!

obeikandl.com

انهمر مطر وجرى سيل، وطبلت وديان، وهو باق، كان يثمر كل سنة، طعم نبقه لا يرقى لسدر ((الزخمي)) لكنه يثمر ويظلّ، وتتمدّد أغصانه بحنو على بيوت الطين التي بدأت تهرم. الكل، صغير وكبير يقول: ((أنا أذكر العويد من استويت)) لكنهم لا يعطونك عمره.

فجأة شدّت البيوت رحيلها، بيتاً.. بيتاً، بعضها استقر في المعترض، والبعض في عود التوبة.. وأخرى في الكويتات، وأهل الساحل الذين كانوا يحضرون كل صيف ما عادوا يأتون.. ظلّ العويد وحيداً إلا من غريب يأتيه من حين إلى آخر، ينعم بنومة الضحى المسكرة، أو بعير يستطعم ورقه الذي بدأ في اليبوس.. والعجائز اللاتي كن يبرزن تحته، استطيبن المكيف أو فصلن عن العويد بطرق وجسور وسيارات تجلب لهن الدوار.. ذهبت القوافل التي تمرح في ظلّه، وأشقياء الحارة التهوا بالسيارات وهواتفهم، ورحلات الشتاء والصيف.

بقي العويد وحيداً.. الآن هو بقايا شجرة هرمة كبيرة، والنخيل التي تجاوره بدأت بالكاد تخرج رؤوسها من الأسوار الأسمنتية، والساحة التي كانت خضراء بحركة الناس ودبيبهم أصبحت الآن يباباً، إلا من سيارة بلدية، يسرق سائقها ساعات من دوامه تحتها، والحارة التي كانت تذرعها أقدام الرجال والنساء والأطفال أصبحت الآن كالرأس الحليق، بقي العويد وحيداً، تساقطت جدائله الخضر، ونبقه تيبس في أمهات غصونه، والوجوه التي كانت تنتظره كل يوم غيّبتها الحياة، أصبح وحيداً.. وبدأ الشروع في الموت.

obeikandi.com

جهانجيرخان

obeikandl.com

obeikandl.com

كذئب ضجر، أو ضبع شبع، يكمن جهانجيرخان حول الزوايا الخلفية للفندق الكبير، يرقب الناس المتجملين، وأفواج الساهرين، يشعر بنشوة النغم المنبعث من الأماكن الضيقة التي تستر الوجوه المتعبة من هرولة النهار، يجلس يشاهد الداخلين والخارجين، يتحسّس النوافذ الزجاجية، والشبك الحديدي لملاعب التنس، يتوقف اندفاعه الغاضب عند حدود الأشياء، والفضول القاتل الذي يعتمل به صدره، ما يلبث أن يصطدم بحواجز الخوف والرهبة والجهل بمفردات الأشياء، يعبث جهانجيرخان بمحتويات صناديق الزبالة الخضراء، ينبر المخلفات والأكياس الممتلئة بالعلب الفارغة، والزجاجات التي تنبعث منها روائح النشوة، تصعب عليه تسمية الأشياء، تظل الأمور عنده معرّقة في رأسه بألوانها، والركن الصغير في كوخه الخشبي يضم كل يوم شيئاً جديداً وغريباً، وقطعة الحرير الداخلية وجد لها اليوم أختاً، لكن بلون يختلف، يظل يعبث بها بأصابعه الغليظة يركب عليها من الوجوه والأجساد ما يتراءى له في الصباح الفندقي حتى يهدّه الليل والتعب.

الليل الأنيس، ولمرأة تطرح عبقها على المكان هي غاية الرجل الضجر.. العين مدينة قاسية، منغلقة على بيوت الستر والحياء، والجبال التي تحوّطها تعطيها من شراستها الكثير، هي الجبال تركيب وحشي للأشياء.. يتمنى لو يتلفع بتلك العباءة السوداء التي تضمر روائح المسك والطيب، ليته يسكر بها، لقد شاهدهن وهن يتبخترن في حفلات الزفاف، المواطنات.. بنات وأخوات الأرباب، عشيقات الهواتف

obeikandi.com

النقالة، لو يظل بقية عمره سائقاً كتوماً، غير أنه يعبث بهذا الشعر الأسود الـــذي يسكن مراتب اللحم، أو يغرق في الأماكن التي تظللـه أوقات الغفلة.

بين الفندق الضخم وغرفة الحارس الخشبية مئات من ســنين الضــوء وفراسخ الاختلاف، سجاجيد فارسية تمد خيوطها الحريرية لأناس من العــوالي، وعذابات رجل رضي برائحة الولائم والنساء والغرف المعطّرة.

جهانجيرخان جنس آدمي موغل في تربة التاريخ، وأدغال الأســاطير، محارب حين تفرض عليه القبيلة وشم الحرب والثأر، مهادن حين تفرض عليــه المدن جبروتها ومدنيتها التي لا يعرف، كيف يلقي السلاح ويظل يتســلى طــوال النهار بخراطيم المياه، يسقي زرعاً لا يثمر. ساق المرأة مقتله.. كم من ســيقان تدخل بوابة الفندق أو تصطلي بشمس حوضه، المرأة مقتله، هذا الجانــب المسفر من الحياة، الغائب عن دنياه، بنات النصارى هن الحياة، كيف خُلقن، وأية قوة جهنمية تسيطر عليهن، وعلى هذه الأجساد الموشاة بزغب النار، ترعد جلده الجبلي الذي ألف برودة الكهوف ورياح سموم العين.

يتذكّر جهانجيرخان، كيف عصفت به الحياة، مجتازاً الأودية والسهوب، هارباً من النيران وشظف العيش والتعامل الذكوري مع كل الأشياء، وهــا هــي الحياة هنا أكثر ذكورية وأكثر صلابة، ظهيرة قاسية ومساء غليظ، باردة لياليــه،

واللغة فترت من قلة الاستعمال، تربطه ببقية أهله عبر أشرطة مسجلة، تأتي متكاسلة في صندوق بريد أحد معارفه، صولة خان بائع السجاد والنعال والأقفال والخردوات. كيف تمضي السنون هنا في غياب عن الأشياء التي تتمناها النفس، والثمانمائة درهم الشهرية تصبّر الرجل على التخلي عن الفحولة المجبول عليها.

يتمنى لو يدخل بيت الآلهة هذا بعمامة حريرية وصديري من الذي تحيكه الأم للابن الغائب، يُمد له سجاد أحمر حتى مرقده، يرطب جلده برغوة الصابون وماء السيراميك الدافئ، يفرح بكل الأشياء المرفهة في الداخل التي تتسرب له من حديث العاملين الهنود، يتمنى لو يطرح هذا الرأس المثقل على مخاد النعام، وتطرح إحدى هؤلاء الحوريات رأسها على هذا الصدر المعشب بكل جبروت الرجولة.

وفي ليلة كلتها الحلم يقرّر جهانجيرخان أن يخرج الصندوق الشهري، وتعبث يداه لأول مرة بالأوراق الزرقاء، يقرّر أن يطأ السجاد العجمي بحذائه المتسخ، يقرّر أن يضاجع بيت الآلهة والمدينة الذكورية.

obeikandl.com

obeikandl.com

المهدي

obeikandl.com

obeikandl.com

((مطر.. مطر..)).

تصاعدت أنفاس المهدي جرّها متلاحقة وصاح في أمه.
((ماما.. مطر.. ماما كاين.. شتاء..)).

فزّ، حاس في البيت، ركض نحو حبل الغسيل، جذب جلابته التي لم تجف بعد، أدخل رأسه فيها وهو يركض، توقف فجأة. نظر إلى جلابته، حملق فيها بانت قصيرة جرّها إلى أسفل ثم خلعها، قلبها وارتداها ثانية، نظرت إليه أمه وهي تتنهد، زمت شفتيها وهزّت رأسها حسرة وحنواً..

((.. حبيبي المهدي اجلس لا تخرج بره.. اجلس ساعدني.. في عيالات بزاف جايات هذا الصباح، اجلس حبيبي الله يهديك..)).

تنطط المهدي وفتح ذراعيه وأرقد رأسه على كتفه..
((.. كاين شتاء.. كاين شتاء..)).
صعد السلّم بسرعة، خطف قصعة ونزل يتقفز، خرج غير عابئ بتوسلات أمه والباب أغلقه على صيحاتها التي تبعته إلى أول الزقاق.

كان اليوم ساخناً ورائحة رطبة شمّها المهدي كأنها عرق الأرض، جلس تحت فيّ شجرة البرتقال التي اعتاد أن يجلس تحتها، يراقبها تكبر معه، هي أول بوح بين الأم وابنها عن الرجل الذي دفن شعر طفلها الحليق ذا السبعة أيام ورحل، تاركاً الكل يكبر بعيداً عنه، شجرة البرتقال التي زرعها، الزوجة التي خلعها، الابن الذي جاء في غفلة منه.

obeikandl.com

جلس المهدي ونزع شوكة أدمت قدمه الحافية دوماً، قعد يرقب البيوت الصامتة إلا من نميمة، كان توهج الأرض يعطي لرئتيه رائحة الثرى، تأمّل السماء ثمة رائحة تتكوّن في الأعلى لتستقر في أنفه..

((.. مطر.. مطر..)).

كان السحاب يمشي مثل شيخ وقور على لجة ماء، راقبه حتى شعر بأن البيوت تتهاوى في رأسه، استند على يده واستدعى غفوة كانت تحوم حول جفنيه.. تراءت له امرأة بللها المطر حتى غدت تضاريسها المتورّمة كالوهاد.. شاهدها بالأمس تدخل على أمه لتكشف لها ورقها، لقد جلست عندها كثيراً وشربت ست ((كاسات)) شاي أخضر بالنعناع.. تبسّمت له المرأة وهي تعيد ترتيب حجل الذهب الذي يملأ يدها المنتفخة. مسحت على رأسه وهي تخرج مبتسمة عن أسنان لوحتها سحب الدخان وسجائر اللف، ودّعتها أمه عند الباب ودخلت في حين كان المهدي متسمّراً خلف الباب ينظر إلى عجيزتها الثقيلة التي كانت ترتج كلما دبّت قدماها على الأرض، فجأة التفتت للمهدي وأسرعت نحوه، سحبته من جلابته وافترشته، شعر بثقلها يطبق على نفسه، حين صرخ ألقمته ثدييها الشبيهين بالقرب المملوءة، أمسكت بعضوه الذي تضاءل حتى اختفى في يدها، شعر بكتلة اللحم تلك تجثم على روحه، وشخيرها يملأ أذنيه، وضحكة النشوة فيها تلعب بها حتى تبين عن سنين ذهب تفرقا في فكها العلوي، كانت يداه

تقاومان حتى غدتا كالخرقة المبلولة، امتلأ جسده صراخاً وعرقاً ورائحة لحم نيئ.

فزّ من نومه غير قادر على بلع البلغم الذي تجمّع في فمه، تـذكّر التماعة السنين الذهبيتين ورائحة نحاس رطب وكاد يستفرغ، شعر برهبة وبرد وعرق، وقام متثاقلاً إلى بيت أمه.

عند خاصرة الزقاق تراءت له المرأة البدينة المرتجة، لمحته وضحكت: ((كيفك يا مهدي..)).

نظر إليها، وفرّ هارباً يسبق قدميه.. دخل بسرعة، وأفزع أمه كعادته وهو يفتح الباب، تعوذت من الشيطان الرجيم.. ارتمى في حضنها وشعر بالدفء والنوم، هدأته وأرقدته على رجلها هزّته وهدهدته.

((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. حصنتك باسم الله.. وكتاب الله.. ومحمد رسول الله.. دادا.. وليدا.. يكبر لي وليدي.. ويقوليا يا ميمتي.. نيني يا مومو.. نيني يا مومو، حتى يطيب عشانا، والا ما طالب عشانا يطيب عشاء جيرانا..)).

كان المهدي يتفزّز في نومه، في حين كانت أمه تنظر في ورقها المفرود أمامها تقلبه، وتنظر بين الفينة والأخرى إلى ذلك الراقد في جلابة الشقاء، وحين

لمحت ساقيه النحيلتين المغبرتين، غصّت بعبرة ثكلى واستمطرت دموعاً طالما أخفتها عن الجميع.

((.. المهدي.. المهدي بركة يا وليدي فيق.. مطر.. جاء المطر..)).

قام المهدي.. تذكّر القصعة تحت الشجرة، وخرج راكضاً، وحين لامست أولى قطرات باردة وجهه ضحك ولمعت عيناه، تطلّع إلى السماء تاركاً الرذاذ يداعب وجهه بلذة.

فتح حلق جلابته سامحاً للمطر بأن يشاغب صدره وبطنه.

جلس على الأرض وجعل يكوّر كرات من الثرى، تذكّر القصعة، حمل كرتين، وانطلق نحو شجرة البرتقال، لقي أطفالاً يلعبون، جلس يراقبهم، ثم اعتزلهم، ظلّ يلعب بالثرى حتى اخترقت كلمة من تعليقاتهم جدار أذنه.

((المجنون.. المهدي ولد الشوافة..)).

بنى بيتاً من الرمل، وبين الحين والآخر كان يراقب الأطفال من بعيد، حتى جاءوا يركضون، تأمّلوا بيته الرملي.

((.. المجنون ولد الشوافة، بيته بدون شرجم ولا باب..)).

obeikandi.com

تحلقوا حوله وجعلوا يغنونها..

((بيت المهدي بدون شرجم ولا باب.. بيت المجنون بدون شرجم ولا باب..)).

هدّه وركض خلفهم، تذكّر القصعة ومسح دمعة طفلة لم تكبر كثيراً فـي عينيه.. توقف.. وركض نحو شجرة البرتقال وهو يغني مراوحاً بين رفـع يـده اليسرى وقدمه اليمنى، قدمه اليسرى ويده اليمنى ((.. أشتقا تاقاتـا.. اوليـدات الحراتة، المعلم بوسكري، طيب لي خبزتي خبزتي عند الطالب، والطالب ما سايق اخبار، ومرانه ولدت حمار، علقته عند باب الدار، واللي داز يعطيه ريال)).

قابل طالبات عائداتٍ من المدرسة يضحكن ويتقارصن، جعل يشـاور علـيهن واحدة واحدة.

((أنت تنجحين، أنت تنجحين، أنت لا.. أنت حلوة.. أنت تنجحين، أنت لا..))

وعاد عليهن من جديد وهن يضحكن، الناجحات كنَّ يقلن:

((يا رب يالمهدي..)).

أما غيرهن فكنَّ يقلن بتذمّر:

((.. اتركن هذا المجنون في جنانه وجنونه..)).

يضحك المهدي ويعاود عليهن:

((.. أنت حلوة.. أنت تنجحين.. أنت لا.. أنت تنجحين..)).

ركض قدامهن وخطّ خطاً على الأرض، وجعل يمرّر مــن قــال لهــن: ((ستنجحن))، أما الأخريات فكان يمنعهن من عبور خطه.. وقف أملم بشرى وهو يضحك بفعل غريزي: ((.. أنت حلوة، أنت تنجحين، أنت كازا.. أنا سروال جديد..)).

قبّــل أصابع يده المضمومة محاولاً أن يستنطق عيني بشرى التــي وقفــت ساهمة إلى أن سحبتها الطالبات وهن يضحكن، أطبق جفنيه على صــورة الفتــاة البيضاء الممتلئة التي تعطي للتنورة الكحلية والقميص الأبيض المدرسي رائحــة الأنثى.. ضحك المهدي وجلس يمسح الخط الذي اختطه على الأرض، التفتت إليه بشرى من بعيد، لوّح لها بيديه، ثم قبّل أطرافهما بنشوة لم يعتدها من قبل.. ظلت صورة بشرى تكبر في رأسه وعينيه.

لا شيء يجعل المهدي صامتاً منقطعاً إلا من اضطرابات تفتعل في الداخل مثل رؤيته لبشرى أو الدرويش أو منظر الغسق بألوانه الجهنمية، وكأن السماء لوحة كبيرة أهرقت عليها ألوان الفصول. يخشع المهدي كالمصلي.. يتأمل الألوان الكثيرة التي لا يستطيع أن يلمسها.. مرة ألحّ على أمه أن تسير بــه نحــو تلــك البقعة التي تنتهي برؤية العين.. كان يقول لها إن أباه يسكن هنــاك مــع امــرأة حلوة.. ترتبك عضلات وجه الأم، وتلتقط رأس المهدي وتهدئه إلى صدرها، تظل تمسح رأسه برتابة، كامرأة ملت السواد والانتظار.

((المهدي حبيبي.. هذه السماء هي فوقك وفوقها سبع سماوات طباقاً، وكــل سماء لها أبواب وحرّاس غلاظ، لا يعرج فيها إلا الملائكة ومن أذن له من البشر

والناس.. لا ينفذون إليها إلا بسلطان، والسلطان غائب أو محجوب، الله وحده من يعطي معرفة بعض الأسماء لمن يختصهم..)).

انتابت المهدي قشعريرة حمى أرعدت جسده الهزيل، وأحس بصليل سيوف ووقع حوافر جياد تهبط من علٍ.. وشجرة عظيمة تظللها السماء مدّت غصونها، تعلق المهدي بفرع منها.. وهبّت عليه ريح المسك التي أخذته إلى عالم يتلألأ بالزبرجد والياقوت والغيد الحسان، أسكره الحلم والعرق البارد ونام.

حين يأتي الدرويش إلى القرية، كان المهدي يمشي خلفه طوال اليوم حتى تستفقده أمه، لكنها حين تعرف أن الدرويش في القرية يطمئن قلبها، وتبدأ تحضير صرة مليئة بخيرات الله، يأخذها الدرويش منها كلما جاء إلى القرية مستجيباً لنداءات أم المهدي بأن يدعو لابنها بالشفاء ويجعله من الصالحين. كان المهدي يمشي خلف الدرويش في كل مكان من غير أن يتبادل حديثاً، فقط حين يريد الدرويش أن يترك القرية، يظل يتأمل عيني المهدي لدقائق، ثم يطبق قُبلة على جبينه، ويمد له من زوادته سكاكر وحلوى..

يظل المهدي يتبعه.. يتبعه.. حتى يرهقه المشي، حينها يبدأ الدرويش في طقوس الغياب حيث تحجبه كثبان الرمل الخبازية، ولا تبقى منه إلا آثار أقدام حافية، سرعان ما تذروها الرياح. يقفل المهدي بعد ذهاب الدرويش، ويظل صامتاً مكتئباً. لقد اعتادت أمه على هذا، لذا تواسيه برجوعه في أي وقت، لأنه يذهب إلى المحتاجين في كل مكان. تظل تحيك قصصاً أسطورية عن الدرويش وغيابه في بلاد الله، ليزور عباد الله، محتفظاً بسرّ المعرفة وطلاسم الغياب.

في يوم صحا المهدي فرحاً وكأنه غسل بماء الكوثر، شعر بفيض نور إلهي يسري بداخله، وكأن أسرار السماء كشفت له وحده، شعر بشعاع اليقين وبهتك الحجب، خرج يركض في القرية، يضحك للجميع ويلوّح للبنات العائدات من

المدرسة، جلس يغني لشجرة البرتقال ثم نهض يعد البيوت ويرسم على جـدرانها خطين متعامدين..
((بكرة وقعود)).

دخل على أمه يقبّلها ويحاول حملها ويتشبث في عنقها، ثم احتضـنها حتـى غاب في عينيها، وارتعش جسده الهزيل حتى ذاب في يديها أرقدته في حضـنها، وحين استفاق من غيبة الرجفة قال بصوت طيور الجنة:

((.. ماما أنا غادي نموت.. أنت تجيك فلوس بزاف.. بزاف.. ما تبقيش تضربي الكارطة..)).
((.. الله يا مولاي..)).

صرخت أمه وانقبض قلبها واحتضنته مبللة وجهه بدموعها، ضمته إلى صدرها وهي تردّد بوجل:
((ربي يهديك ويحميك يا وليدي.. ربي يبقيك يا المهدي.. ربي يبقيك لي..)).
خرّت دمعة كبيرة من عيني المهدي واستلبسته حالة فقدان الوعي وانحسار غشاوة العين وانكشاف المستور، شعر بدخول رجالات كهالات النـور يفـردون أجنحة كزرقة البحر، تغطيهم عمائمهم الخضراء ولحاهم البيضاء، يقـدّمون لـه صرة من مخمل وعكازة من خشب العود.

في المساء دنّ رعد، صهل في آذان القرية التي استعدت للنوم وتـلألأ بـرق خطف أنظار العيون التي بدأت تنعس: هطل مطر شديد والريـاح باتـت تعـوي، ارتفعت أصوات الأذان في أكثر من بيت، ونامت القرية ليلتها تحرسها التسـابيح والاستغفارات وترديدات الذكر.

في الصباح صحت على فجيعة اختفاء المهدي ولد الشوافة.

((.. المهدي خاف من الريح وسقط في بئر عميقة..)).

((.. المهدي كان يتبع صوت الرعد ويتهتدي بضوء البرق..)).

((.. المهدي سار خلف الدرويش في بلاد الله، يزور عباد الله..)).

((.. المهدي لم يمت، سيأتي يوماً مع المطر..)).

وحين تُسأل أم المهدي عن المهدي تقول:

((كان في حضني ثم غاب في ملابسه البيضاء الجديدة)).

obeikandl.com

obeikandl.com

تفاصيل باريسية

obeikandl.com

obeikandl.com

((كاهن المحطة))

– على أرضية محطة شارل ميشيل، ألتقيه كل مساء وأنا عائد أحسب خطوات اليوم، يجلس على درج المحطة، يتقرفص، يغطي رأسه ووجهه ببطانية عسكرية قديمة، يدفنه بين ركبتيه تظل الأقدام تدبّ عن يمينه وعن شماله، وكلما توقف القطار انتفضت تلك البطانية.

ماذا يفعل إنسان بالساعات الطوال غارقاً في الظلمة وفي أحزان الحياة، لا يتحرك من مطرحه، لا أحد يستطيع أن يعرف كيف يأتي ولا متى يروح، ولا أحد يجزم بأنه رأى وجهه، كيف يتحوّل وجه إنسان في مدينة كبيرة إلى بطانية صوفية قديمة يجلس بالقرب منه صحن قلما يمتلئ بنقود العابرين المستعجلين، تهان لقمة العيش في مدينة كبيرة كهذه، بين وقع الأقدام والصحن غير الممتلئ والوجه الذي تغطيه البطانية العتيقة.. وحدهم السياح كانوا يلتقطون له صوراً معتقدين أنه إعلان للمدينة التي تعشق الأزياء والعطور والعهر.

obeikandi.com

((خطوات في الظلام))

- كنت أعرف وجهتي هذا اليوم، حتى أبصرت رجلاً أعمى تقوده عصاه في قطار الأنفاق، صعد مع الصاعدين واختار مكاناً شاغراً وجلـس، حينهـا قـرّرت أن أتبعه وأنزل حيث ينزل، كنت مندهشاً كيف يستطيع أن يخرج سليماً من هذه المحطات- المدن التي تحت الأرض- التي تدوخ المبصر العـارف، فكيـف برجل ضرير. حين توقف القطار في إحدى المحطات، قام، توجه إلى الباب الإلكتروني القريب منه، فتحه وخرج مع الخارجين، تبعته، كنت أراقبه من بعيد، لم يتقدّم أحد لمساعدته، عرف كيف يصعد السلالم، يخرج من كل تلك التحويلات والممرات، ثم استقل السلّم الكهربائي حتى قـذف بـه خـارج المحطة، مشى قليلاً، ثم استراح في حديقة، جلس في مقعد يبدو أنه يعرفه من قبل. بعد عشر دقائق وصل أعمى آخر تقوده عصاه، ربما مرٌ برحلـة طويلة كالتي أمضاها صديقه، التقيا، جلسا قليلاً، ثم غيَّبهما المقهى الـذي يحتل الرصيف. وصدر المرأة العانس صاحبة البار.

((الدور الأخير))

- في أحد مطاعم ماكدونالد الكثيرة، هناك رجل طويل أشبه ما يكون بالطفل الكبير، يجلس في زاوية قصية يحتل طاولة بأكملها، يوزّع الحلوى والبسكويت على الأطفال وعلى النساء اللاتي يختارهن، ثم يغطّ في نوم متقطّع، ينهض، يتمتم بكلمات غير مفهومة، هي أقرب إلى الشتائم، ثم يضحك بعفوية طفولية، ويجلس يعدّ أقلام التلوين ويصفّف أشياء كثيرة يحملها.

حين رأيته لأول مرة أيقنت أنه رجل ميسور الحال، غير أنه فقدَ أغلى شيء في حياته، شيئاً ما خطفته الحياة منه، ورغم ثيابه المهلهلة إلا أنه لم يعطني شعوراً تجاهه بأنه شحاذ.

في يوم كنت خارجاً من سكني وصادفت الرجل عند المصعد، ابتسم لي وارتبك فيما يحمله من أشياء كثيرة في يديه.بعد دقائق من دهشتي لمحت المصعد يتوقف في الدور الثلاثين ليطل الرجل الطفل على السين وعلى جرحه الغائر في الدماغ.

obeikandl.com

((الساعة الثانية عشرة ظهراً))

– يومياً، وفي تملم الساعة الثانية عشرة ظهراً، أكون قد وصلت منعطف الشارع المؤدي إلى مكان دراستي، أشاهد امرأة شقراء، تبدو أنها موظفة من أناقتها التي تفرضها عليها المكاتب الرخامية، أشاهدها وهي ترمي زجاجتي نبيذ في صندوق القمامة.

يبدو أن خلف الزجاجتين، يقف رجل عاجز، أو امرأة تريد أن تدفن هموم الأيام.

((عدة نصب))

– في مقهى المدريكال، تأتي صبية جميلة، فيها ملامح جمال شرقي، تجلس منزوية على طاولة في آخر المقهى، تعصب عينها اليمنى بضمادة قطنية بيضاء، تجلس وحدها، تشد الزبائن بحلاوة ملامحها، والكل يسأل عن سبب الضمادة القطنية، الكل يريد أن يعرف سبب ما تشكو منه هذه الصبية الجميلة، الغرباء عن المقهى تكون محور حديثهم الدائر، أما زبائن المقهى فيعرفون أنها عدة نصب.

obeikandl.com

((بانتوميم))

- على ناصية في حي الأوبرا يقف ممثل صامت يبهر النـــاس بدقتــه التمثيلـــي الصامت المتقن، بعد أن ينهي نهاره.. يجازى بالتصفيق الحار والفرنكات القليلـــة، يحمل زوادته وصحن النقود ((الفكة))يمضي صامتاً إلى جهة ما تحتضن مســـاءه الطويل.

أكثر من عشرين سنة وهو صامت، يمثّل أدواره صمتاً، وينصرف صامتاً.. بالأمس سمعنا أنه صرخ في وجه الحياة وفقدَ النطق.

obeikandl.com

obeikandl.com

خطوة للحياة..خطوتان للموت

obeikandl.com

obeikandl.com

الخطوة الأولى

مثل عاشق دنف احتضن عوده، لامسه بصحن خده، وأسكنه فضاء صـــدره. وأصابعه الطويلة المدربة بدأت بالرقص كغجرية حافية، ردّدت الأوتار وقع الأصابع، صد. وقرار، والنغم استباح المكان مبحرا بأشرعة القلوب، بحثـاً عـن شعر أنثى، عن قد غض لايزال يترعرع في الثوب المدرسي. الريشـــة تــرتعش كطائر نزق مبلول بالندى.. أسكن خده على عوده، وبدأ اللحن يتسرّب حيث يشتهي من الجسد، تحرّكت قدمه اليسرى تنادي إيقاعاً هارباً، والرأس امتلأ بالكثير.. للعود بحة تهزّ الصدر، كانت موسيقاه تنفلت كظلالة غيم سابحة، تجوب الأفق، ومرافئ الحضور.. الأكف تشتعل، والعيون تتخطى الحجب.. ثمة صـــلوات بين العازف وآلته، ثمة عشق يحترق.. والموسيقى وحدها قادرة على قبض كـــل هذه التضاريس. والأصابع النظيفة أكثر من أصابع طبيب تلامس الوتر كالنبض حينـــاً، وحيناً آخر كانسياب الماء.. أية حياة يبعثها هذا التجويف الخشبي في القلوب..هناك تناغم بين الضوء المنبعث بألوانه الصبيانية والشجن الخارج من صـــدر العـــود.. أكف الحضور لاتزال تلهج بالفرح، عيون عاشقين تتلاقى في مساحة ود، حضرة صفاء، وكحل يغتسل في عيني امرأة خمسينية متزينة، وابنة أربعة عشر عامـــاً تنز من مقعدها، يضحك شقا عينيها.. النغمات المتمطية حزناً، وكفا رجـــل جثـــة تدوران كالرحى أقعدتاها.

ابتسم العازف، حيا جمهوره، نهض، تعالى التصفيق، رفع كفيه والريشة تتوسط أصابعه، حيا الجمهور بحركات ممثل صامت، لوّح بيديـــه وانحنـــى، وزّع

ابتسامات من قلبه، ترتجف فرحاً وخجلاً.. جلس، دندن، وبدأ لحناً جديداً، تاركـــاً مساحة لانتهاء دوي التصفيق.. كان يختلس نظرة بين الحين والآخــر للحضـــور متداركاً حرج التصفيق وفرحه به.

الرجل الجثة أكثر الحضور فرحاً واندهاشاً وتصفيقاً، كان لقيامه حفيف ولقعوده فحيح، كان طلقاً والعفوية تطبع ملامحه وتصرفاته، يجتهد بتصـــفيقه أن يعبّر عن كلمات كبرت في جوفه، ينفعل ويكون لصوت كفيه التقاء ترسين، يضحك بفعل طفولي ويجلس.

قام العازف ثانية وانحنى.. تقدّم خطوات وانحنى، أظلمت القاعة، وعمّ الهدوء،تلاعب عامل الإضاءة بالنور.. رسم أشكالاً نورانية، ســلّط ضـــوءاً كاشفاً على العازف، بدا كصورة مترجرجة على وجـــه المـــاء، والـــدخان الأبيض بدأ يسعى في أرجاء المسرح، خالقاً للمكان غبشاً حالمـــاً، فيخـــال العازف وكأنه محارب قديم خرج لتوّه من أنقاض يونانية، أو فارس شـــقّ فجراً بغدادياً، وخرج معفراً بروائح الثرى والياسمين.

رن وتر كان منسياً، راوح عليه بين ريشته وأصابعه، أخرج صـــوتاً شـــبيهاً بكحة صبية نعشقها، زاوج بين الرنين والتطريب.. أشعل مقاعد الحضور، كـــان

obeikandl.com

صوت العود يصل إلى النفوس ويكاد يبكيها، يحملها معه إلى أقصى مساحات الحلم، أمكنة الفرح، ساعات الحزن ويبكيها.

قلم باكياً من الفرح.. وانحنى للجمهور.. في فترة الزهو، لحظة النجاح، لابد أن يتوقف الدم عن دورته، لحظات.. ويسلك متدفقاً طرقاً جديدة، ودورة جديدة. نهض الرجل الجثة، شعر بأن المقعد ثوب ضيّق، ظلّ يصفق، صعدت طفلة إلى المسرح، وطبعت قُبلة على خد العازف، مسح على رأسها وقبّلها، تبدو من ثقة خطواتها أنها ابنة أخته، طفلة أخرى أرسلها أهلها، أهدته وردة ليلكية وانصرفت بسرعة. تناثرت عند قدميه الورود والمناديل الملونة. بكى فرحاً وأسند عوده على الكرسي برفق، وتقدّم نحو الجمهور، رفع يديه محيياً والريشة لاتزال تنتصف أصابعه.. انحنى وكاد يقبّل الخشبة.. والرجل الجثة مازال يصفق وعيناه تدوران بكسل نحو الناس.. ابتل فمه، ولسانه بدأ يتحرك بلا أعصاب.. تقدّمت فتاتان في عمر الزهور إلى المسرح، وأهدتا العازف ورداً وأشياء أخرى لا تُرى، نثر العازف الورد الذي في يديه على الجمهور، وتمتم بكلمات لم تُسمَع وسط التصفيق، انحنى ثم صفق مع الجمهور.

الرجل الجثة استلبسه مرح وبله، كان كأي طفل سمين دلع، ربيب أمه، ظلّ يصفق والانكسار يغشى عينيه، صعد خلف الفتاتين، صعد إلى الخشبة يغالب وزنه الثقيل، والظهر المعطى للناس، كان لجزار ممتلئ شبعاً، صفق للعازف،

نظر للجمهور بطريقة تعاسية باكية وتابع صعوده، صرخت الفتاتان.. استَقبله العازف بابتسامة وضاع بين يديه.. وحين لم يستطع أن يتبادل معه حديثاً أدرك أن هذه الجثة خرساء، ابتسم له، ورد عليه الآخر بابتسامة أخرى باكية، أخذ يتعصر لكي يخرج حروفاً ميتة، أو أصواتاً دُفنت في داخله من الصغر.. بكى بنشيج طفولي، حضنه العازف، ركع الرجل الجثة على ركبتيه، وأمسك بيدي العازف يقبّلهما في مشهد مسرحي.. صرخت الفتاتان، نظر إليهما بعينين مغبشتين، هوى على يدي العازف يلثمهما، بدتا في يديه كعصفورين ميتين، ظلّ يقبّلهما ويتمسّح بهما.. والتصفيق يسكر القاعة.. أصوات.. همهمات.. صراخ.. ودهشة تغلف المكان والعازف حاضر وغائب تتنازعه الحيرة والشفقة، والجثة جاثية على ركبتيها تقبّل يدي العازف، تلتهمهما.. تلثمهما، تعالى التصفيق

ووجوه الحضور تدور يمنة ويسرة تبحث عن جواب غائب.. علت صرخة.. جفلت عيون.. تعطلت الأكف.. وعمّ الصمت.. سقط العازف مغشيا عليه، واستدارت الجثة نحو الحضور بتراخ والدم يغسل وجهه ويديه.. عوت أصوات نسائية شقت القاعة وأذني الجثة، التي أدركت حينها أنها ابتلعت ثلاثة من أصابع العازف الطويلة المدربة.

obeikandl.com

الخطوة الثانية

كان اختيار مسؤول القسم الداخلي لمدرستنا هذا العام موفقاً، على رأي المدير وبعض الأساتذة الذين يحبون المشي مع المدير.. وراء المدير دوما.

لقد ضمنت المدرسة باختيارها الأستاذ شوقي عبدالحميد، أن الهروب الليلي إلى السينما سيقل، وأن حدة ألسنة طلاب الإعدادية الذين يعتقدون أنهم كبروا ستخف، وأن هذا الامتداد الطولي والعرضي في أجساد طلاب الثانوية والمزهوين بسواعد تنمو بسرعة، سيوفرونها لمشاكسات الحارة في الإجازات.. والمدرسون المتعودون على الشرح الطويل والصوت العالي بدوا لطيفين.. كأصوات البلابل. شوقي عبد الحميد كان ربعة.. خرسانة حديد انطعجت فجأة بفعل قوة أعلى منها.. كان كتلة، ضخم الصدر يضم قرصين مثل ((كُدَم العسكر)) التي تباع في تعز، وسواعد مثل الحديد المطروق بعناية حداد ماهر لا تجعل سفراً أو هواء يتسرّب إلى رئتيه، ورقبته مثل جذع النخلة تحمل رأساً صغيراً كالرصاصة، فيه عينان يقظتان دوماً، وأذنان صغيرتان كفأرين أبصرا النور للتو، وشعر قصير لا تمسكه الأظافر.. ومشية ثقيلة تئن الأرض تحتها.

كان الأستاذ شوقي عبد الحميد حين ينزع فانيلته البيضاء التي يلبسها دوماً، نستطيع أن نوقفها كأي شخص بلا حراك، أما حين يخرج متأزراً بفوطة تكاد أطرافها أن تلتقيا، تظهر ساقان جديرتان بحمل كل هذا الثقل، كنا ننظر إلى انتفاخ رجليه، نتحسسهما، فيضحك، ننظر إلى أرجلنا الناشفة ونضحك معاً، كنا نتطلق

به، كان يحمل كل ثلاثة أشقياء على يد، كنا نستعجب من جسده وتفاصيله العضلية.

نشأت بيننا وبين الأستاذ شوقي عبد الحميد علاقة صداقة حميمـــة مـــا كنـــا نتوقعها في أيامه الأولى.. فمظهره وكلام المدرّسين الذي يغيظ أحياناً، كانا كافيين لكي نجتهد في عدائه ومضايقته، لكن علاقة غير التي كنا نتوقع حدثت.. تمامـــاً مثلما ألفته هذه القطة، رمادية اللون، التي تتمحك بباب مطبخه ومازالت حتى غدت تتفقده إذا غاب طويلاً، أو تنتظره حتى يعود. كنا نجلب له الفواكه والأكـــل. كـــان يقول إنه دائماً في توازن مع أكله ومرانه، وأنه متبع حمية خاصة، لكـــن حـــين نأتي له بالطعام يأكله بشهية ويقول:

((أنتم حتخنوني يا أولاد..)).

وحين نسأله: ((كيف استويت هكذا يا أستاذ شوقي..؟ يرد: ((أنا بطل الجمهورية في المصارعة..)).

نصفق له ويزداد إعجابنا به، كنا نرافقه حين يتدرب، كيف يرفع ذلـــك الحديد وحده؟ وحين ينتهي من رياضته اليومية، يدخل مطبخه الصغير، الذي أخذ ركناً من غرفته متقاربة الجدران، يعصر برتقالاً قدر الكأس الكبيرة التي أحضرها مرة من أحد الفنادق.. أو يأكل برتقالاً بقشره، كان يكره أكل الهنود، لكنـــه يعشق المعلبات، يتلذذ بها، كان يطبخ وحده، كان يقول وأتذكّر عبارته جيداً.

((أنا ما باكلش حاجة مش مفيدة إطلاقاً..)).

كان يقول ذلك وهو يجلجل بضحكته المتميزة الشبيهة بضحكات كفار قـريش في مسلسلات رمضان- كنا نخرج معه في الأسبوع مرة، أو مرتين، كان يختـار لنا أفلاماً فيها مغامرات وبطولات، كان يعيد علينا سرد قصص الأفلام التي نشاهدها معاً، كنا نستمتع بقصصه عن المصارعة.. كيف تغلب على البطل المقنّع.. كيف تمكّن من قهر المصارع الوحش حين غدر به.. كيف أجبـر المصارع الحديدي على الاعتزال.. كانت قصصه مثل الأفلام.. جميلة.

تربت في مطبخ الأستاذ شوقي، تلك القطة رمادية اللون.. بدأت تسـمن بـبطء، رغم أن فضلات الأكل التي يخلفها قليلة، إلا أن القطة ألفته، وأصبحت، فيما بعد، جزءاً من غرفته متقاربة الجدران، في حين بدأت تدرك اسمها الذي أطلقه عليها.

كانت ((بوسي)) ترقد في المطبخ أو عند باب الغرفة، أمـا حـين يسـتبطئها فيعرف أنها ستنام بجانب خزان المياه خاصة في شهر فبراير.

مرة جلسنا نلعب أمام غرفة الأستاذ شوقي، ونلاعب القطة معنا، فقام راشد ولد سالم العُماني وقال: ((لا تلعبوا مع القطط.. القطط تنقلب إلى عجائز ساحرات بالليـل.. القطة حرمة من الجن..)) جفلت عين الأستاذ شوقي.

فيما بعد.. كان ولد سالم العُماني يخبرنا أن الأستاذ شوقي حين يستفرد به، كان يسأله كثيراً عن مدى صدق قصصه، وكيف سمعها، وممن؟ وحين يخبره أن مصدرها أبوه كان يرد عليه: ((وهل أبوك دا بيصلي.. بيعرف ربنا؟)).

ازدادت ساعات تدريب الأستاذ شوقي.. بدأ يزيد من وزن أقراص الحديد، ظلَّ جل وقته يقضيه في غرف الطلبة ولا يغادر إلى غرفته إلا إذا احمرت عيناه، وبدأ الطلبة يهذون بشقاوات اليوم، كان نومه متقطعاً، وبوسي التي كان يدللها أصبح ينظر إليها كنظرته إلى ولد سالم العُماني، مزيج من الحب والتحقر، والخوف غير المعلن. والضحكة المجلجلة لم تعد تدوي.. بدأ الأستاذ شوقي بالتحول، لم يلحظ نفسه، لكننا أدركنا أن شيئاً ما قد حدث.

وفي ساعة ليل.. من الساعات القليلة التي يظفر فيها الأستاذ شوقي بنوم شبه يقظ، تسلل إليه مع الحلم جسد أملس مشحم رطب، كساعد أنثى بض يرتج.. دبى على صدره، جال جسده، مشط ذراعيه.. وفي لحظة هي بين الحلم والكابوس، اليقظة والإدراك نوى بطول يده، أرسل أنة ارتطمت بالجدار، وسقطت أسفله غابت مع الظلمة وجثو النوم.

وفي الصباح باكراً، استيقظ الأستاذ شوقي كعادته، تحزم بالملابس الرياضية وهمّ بالخروج. عند عتبة الباب من الداخل، وجد قطة رمادية اللون نازعت

كثيراًبالأمس، وجد لطخة دم متخثرة على الجدار، وجد بوسي جسداً منتفخا وعيونا شاخصة.

في نفس ذاك الصباح الباكر، كان قرار الأستاذ شوقي عبدالحميد بمغادرتنا ومغادرة المكان.

obeikandl.com

الخطوة الثالثة

لعن أبو رضا البدري في داخله أيام الحرب هذه، ومج بصقة، تلتها لعنات غير مفهومة، تلفت وراءه، وانعطف متثاقلاً في الزقاق المؤدي إلى السوق القديم وأرسل لعنة كبيرة.

ما أن يتبادى أبو رضا عند مدخل السوق، حتى تنهال عليه السلامات والصباحات وعزائم ((الجاي)) بدءاً من المقهى الذي يحتل الركن الشمالي، مروراً ببائعي الأصواف والأقمشة، عزيز الإسكافي، كاظم بائع العبايا.. يرد أبو رضا السلامات بالطريقة التي اعتادها لسانه منذ زمن طويل.. كل بسلامه المتميز، وبالأعذار اليومية نفسها، والمجاملات التي يقتضيها الحال.

هذا اليوم، كانت خطوة أبي رضا مرتبكة، غيّر عادته اليومية وذهب رأساً إلى دكانه، لم يتوقف عند أحد، إلا ليتمتم بعذر توعكه، حتى عزيز الإسكافي الذي رشقه بنظرة تساؤل وكلمة عتب، لم يتبادل معه الضحكات اليومية المرّة.

تناول المفتاح من سترته وأداره في قفل صدئ، تذكّر كيف كان رضا يسبقه قبل أعوام في فتح الدكان، لعن أيام الحرب التي أوقفت الحال، شعر بحرقة في معدته، تجرّع لعنات وسباباً على هذه الحرب، زمّ شفتيه وازداد حرقة، أحس بلعابه وكأنه

رصاص مصهور، جلس بتكاسل متمنياً ألا يدخل عليه أحد، يزيد من حريقه المشتعل داخله.

يلح عليه ابنه رضا.. واليوم أكثر، افتر ثغره عن بسمة لم تكتمل بعد، تذكّره قبل أعوام، وهو يتقفز أمام عينيه، يقضي يومه بين الدكان والبيت طارشاً بطلبات أمه التي لا تنقطع: ((كان يجلس هناك يلعب ويلعب، فجأة كبروه.. ألحقوه بالجبهة.. سنوات مرّت وهو بعيد، يبعث سلامات ورسائل تتعثّر إلى أن تصل.. كأنه ليس رضا الذي كان يقلب السين ثاءً، لقد كبر كلامه..)).

لم يكن أبو رضا ليتذكّر ابنه، وبهذه القسوة، فقد أنسته الأعوام والأحداث الكثيرة جزءاً من ملامحه التي كبّرها القتال.. لم يكن ليعنَ عليه هكذا مثل الألم، لولا مشكلة كرتونة البطاطا التي اشتراها بالأمس.

كان يردّد((دائماً لرضا أشياء جميلة، يطرحها في الوقت المناسب.. لو أن رضا موجود لكان قد وجد لهذه الكرتونة اللعينة صرفة، أو كان قد تدارك الموضوع قبل الشراء، لماذا لم أنتبه لتلك الحروف المشبوهة التي تستقر في أسفل طرفها، كيف وصلت هذه الكرتونة؟

هل كان يدري ((أبو البطاطا)) حين باعني إياها؟ هل لاحظ ما كُتب عليها؟ سأشركه في المصيبة وأرمي الكرتونة عنده.. لكن ربما لا يدري عنها شيئا.. لا، لن أتوجّع. بما فيّ، عليّ أن أتدبّر الأمر، وإخفاؤها.. ألا يا رضا يا جرح.. لزاماً عليّ أن لا تبيت هذه الكرتونة اللعينة في منزلنا الليلة، هاي فيها قطع رؤوس يا بو رضا.. هاي شلون بلوى..)).

كانت أمواج الأسئلة عتية تعصف برأس أبي رضا، ما أن يفيق حتى تأخذه موجة جديدة أعتى.. أسئلة مدمّرة هذه المرة.

((هل يا ترى أحد ممن رآني أحمل الكرتونة، قد لاحظ ما كُتب عليها؟ من أي حدود أو ثغور دخلت؟ وهي المغلقة منذ ثماني سنوات.. حتى المسالك إلى العتبات المقدّسة مغلقة.. من أي ثقب وصلت إلي؟ اللعنة.. لو أن الناس الكثيرين الذين كانوا خلفي عرفوا مصدرها.. عيون الناس عندنا لا تخطئ شيئاً، لابد أن أحدهم قد قرأ ما كُتب عليها، خاصة أولئك الذين يضيقون حدقات عيونهم في الممرات.. المصيبة أن كل الناس كانوا يباركون لي ظفري بكرتونة البطاطا، كان الجميع يقترح طريقة الطهو أو القلي، وحدها أم رضا ظلت حائرة فيما تصنع بها)).

حين أبصر أبو رضا البلد المصدر، تخيّل إليه أن الحرب ستنتقل إلى بيته، ليلتها لم ينم، تبادرت إلى ذهنه طرق عدة، كان الخوف دائماً يقف خلفها، حتى أكثرها جدوى كان يطرده، ما يشاع في الطرقات ويتناقله الناس عن فتك الحرس وأساليبهم التي لا تخطر على بال.

obeikandi.com

((ماذا لو أن أحداً كان يريد من هذا كله، زجنا في قضية لا نعرف أولها من آخرها؟ هل يكون أبو ساري هو السبب؟ أم ابن أخي سعدون الخرع الذي لا نعرف على من ظهر فينا؟)) أكثر هذه الأفكار التي أراحت أبا رضا وأم رضا، كانت من ابنتهما الوسطى ميسلون بجعل كرتونة البطاطا وقوداً للنار، لكن ما لبثت أن ناقضت فكرتها، وهي أنه يمكن تجميع ما تحرقه النار وترميمه وإعادة قراءته، ساعتها تكون المصيبة اثنتين، تملكهم العجب، وكادت تسقط أم رضا حين صرخت ابنتها الصغرى ابتسام: ((ماذا لو أن أحداً يراقبنا الآن..؟)).

فكرة رمي الكرتونة في القمامة بعيداً عن أعين الناس والنهار، كانت من أفكار أم رضا الأولية حين كانت القضية بالنسبة لها أمراً عادياً، أما حين تغيرت سحنة ولهجة أبي رضا، وبدا منفعلاً مغموماً، ساعتها أدركت خطورة ما هم فيه، وأيقنت أن أبا رضا قد يغيب ويطول غيابه، ولا يعود، حينها انتابها النحيب الكربلائي فجأة.
كان أي طرق للباب، أو خشخشة في أي ركن تجعل قلوبهم تقفز إلى نحورهم، والعيون تدور في محاجر أصابها الجفاف البارد.. كانوا يتداورون قصصاً تهجم عليهم فجأة.. كانت وليدة تلك اللحظات المفزعة وللأصوات المنبعثة من الفراغات.

كانت الجدران الرطبة المتشققة ((عيون وآذان)) كلاب تنبح وشرطة تدق بأحذية غلاظ والأصوات التي يسربها صمت الجميع حلقات تلتف حول الأعناق.. أجساد البنات البيض اللاتي تربين في الظل والحشمة خناجر صدئة ثلمة في ظهر أبي رضا.. ولغالب

obeikandl.com

هناك قد يدفن بسلاحه.. وجسد أم رضا الناحل الطاهر قد تلعقه شوارب كثة وشفاه متهدلة.

دارت الدنيا بأبي رضا، وشعر بأن جسمه يتفتق، ينضح عرقاً بارداً، كاد يموت واقفاً، لكنه صرخ بصوت متقد: ((ولك.. أروحلك فدوة أم رضا..)).

وسقط من التعب.. هبّت بناته الثلاث وأم رضا ووقفن على رأسه، نهض، وجالت عيناه فيهن.. ضمهن.. اعتدل في جلسته وقال:

((أم رضا.. أضرمي تحت المرجل ناراً ما وقدت لإبراهيم، واهرسي البطاطا بكرتونتها، وطيبيها بالبهار وماء الزهر والقرنفل ما يجعلنا لا نتقيؤها، وأولمي لنا صينية ما خبرت صنعها.. لابد من دفن سر هذه الكرتونة اللعينة في بطوننا.. ولتخرج فيما بعد على أي شكل كانت، فلن يقتات على خراجها إلا الكلاب.. والقطط المتشردة و...)).

تحلق حول صينية البطاطا أبو رضا وبناته الثلاث وأمهن.. فقد كانت تكفي لوأد حزب بأكمله.

obeikandi.com

وجري الأحرار

obeikandl.com

obeikandl.com

كان يترقب طلوع نجم سهيل، مثلما يفعل كل عام، ليبدأ التجهيز لرحلة القنص، وتدريب طيوره التي يعرفها بالاسم أو حتى بخفقة الجناح، يميزها بعين الخبير، ويتفحصها بعين المربي الصقار، يدربها على الطلع، ليعدها لرحلات الصيد التي قد تمتد أسابيع، والتي يشبر أمكنتها سواء في بيد أو سهول بفراسة بدوي لا تخيب.

طلوع نجم سهيل هو إيذان بموعد اللفو حيث تأتي الطيور متقاطرة، مهاجرة في رحلتها الشتوية طمعاً في الدفء الذي ترسله مياه الخليج أو تختزنه هذه الرمال التي تشبه الذهب المذاب.. ومع اقتراب هطول مطر الوسمي، وظهور الثريا في الأفق المرئي، تطل طلائع الشاهين والصقر الجوال وأحرار الشواهين.

يظل أبو حارب طوال مدة قرصنة طيوره، يعتني بها اعتناء الأب بولده البكر- الذي حُرم منه- يجلب لها اللحم الطري المنتقى كالأرانب والطيور، يقدّم لها الماء بميعاد، ينظف أماكنها ويهويها باستمرار، يمنع عنها الحشرات والدواب، يراقب إنبات ريش صقوره المقرنصة التي سلت ريشها من قرابة خمسة أسابيع، يظل خلال الأربعين يوماً مدة القرنصة عادة، كلُم العروس، يبعد طيوره عن أي جهد، ويشرع في إطعامها وتقويتها لتعد وثّابة كما يعهدها، أو ينشغل وهو يقرض الشعر بخياطة البراقع أو إعداد الأوكار والمنقلة.

أبو حارب، عود صلب من الأشجار التي تغرز جذورها رغماً عن حرقة عطش الصحراء، جلف كما يتطلب المناخ منه، صوت أجش يشبه صرير الباب الخشبي القديم، سماكة الجلد زادها العمل المتواصل غلظةً وتشققاً، يميل إلى سمنة الرجال المحاربين، صدر واسع يزحف شعره إلى العنق يتخطى حلـق كندورتـه العربية، فيفصله بحلاقة دائرية عن شعر لحيته الكثة، يـدخن الغليـون العُمـاني الحار، الذي لا تفارق صرته جيبه والمدواخ الخشبي بني اللون المزين بالفضـة والذي حلَّ محل ((الجيلة)) يستقر مغروزاً في ثنايا عمامته.

ما ينقص هذا الفرح الصحراوي السرمدي، صوت طفل بكر يصـبح عـزوة لأبي حارب في الملمات أو حين تهب رياح الغدر غير المتوقعة. أبو حارب عـادة ما يردها إلى أسباب غيبية، وعقم المرأة التي ظلت تحته أكثر من عشرين سـنة، والتي ظلَّ يهدّدها بين الحين والآخر بجلب امرأة جديدة ستفرحه بضحكة صـبي طالما انتظرها أو تمنى أن تلقاه ببشارتها وهو عائد من القنص، يختتم أبو حارب حديثه التوعدي بالانشغال بأية حاجة وهو يتحرطم بأي كلام يداري به شيئاً ما، في حين تغط المرأة في صمتها الذي اعتادته.. في الليل يتحوّل أبو حارب إلى قط أليف أو كصقر مبرقع نائم على وكره.

تطول أحياناً رحلات القنص إلى شهر ويزيد، بعدها يرجع أبو حارب، وهـو أكثر شراسة وعنفاً وخفة، ما تلبث جلسات البيت أن تقلم من مخالبه شيئاً فشيئاً.

في المرة الأخيرة جاء مغتماً ينعي ضياع طائره ((الوجري)).

كيف لهذا الطائر المطيع أن يقص السبوق والمرسل الذي لفّ حول قدميه بإحكام؟ كيف لهذا الطائر القنوع ألا يعود وهو الذي كان يسمع نداءه من بعيد ولو كانت الطريدة بين مخلبه ومنسره.

ظلّ يتردّد على الأمكنة التي اعتاد وطائره أن يذهبا إليها، لكنه حين يرجع يصفق كفاً بكف، تقبضه الغُصة ويلعي بحسرة..

شروات حر شافك وطار
متملل من شل راعيه
يحوم فوق ويكسر أيسار
وما يرد لو أنك مربيه
يا اللي من التلواح مذيار
جنيع وشماليه معاليه
هندي وسندي منهن اكثار
وكثر الخشر مالي سنع فيه
يا غير من الدانات لغزار
غالي على الطواش يشريه

obeikandl.com

ظل غياب ((الوجري)) يؤلمه، فمنذ أن يفتح عينيه لصلاة الفجر، لا تجدهما تستقران على موقع، كان يردّد على زوجته بين الحين والآخر أن غياب طائره فأل شؤم عليه، في حين كانت هي تدس عينيها في الأرض قائلة بصوت يشبه الهمس: ((عسى الله أن يعطيك خيراً منه)).

يتململ أبو حارب ويخرج إلى جهة ما، غير محدّد سيره، علّه يجد غائبا في طريقه أو يسمع خبراً لا يتوقعه، أو يشعر بنبض جهاز اللاسلكي، بنبذبة تهديه إلى طريق ((الوجري)).

في إحدى الليالي الممطرة، وبعد أن هدأت حركة جسديهما، قالت الزوجة: ((أبشر يا بو حارب، تراني حامل، دواء المطوع هذه المرة نفع..)).
فزّ قلبه كطائر أجفلته حركة تنوي صيده، غير أنه سرعان ما انكمش كقط مضروب على رأسه، خرجت الكلمات الأولى مبحوحة، ثم اعتدل في رقدته وقال: ((مبروك عليكي ما حملتي..)).

في تلك الليلة تمنى أبو حارب أن يطلع فجرها للتو، غير أنها مرّت بطيئة كجنازة ميت مثقل بالأوزار، كان خبر الحمل هذا يمكن أن يشعل قلب أبي حارب فرحاً وبهجة لو كان هذا الحدث في سنة زواجهما الأولى، أما الآن، وبعد كل هذه السنين العجاف، فقد بدأ يشكّل عليه ثقلاً لا يستطيع حمله وحده،

رمى بـــ ((البرنوص)) وقام مجتذباً بشته النجدي السميك، تعقط بغترة حمـــراء، وخرج قائلاً للمرأة التي مازالت تستدفئ السرير:

((اسمع تصافق أجنحة الوجري برع ليته هو..)).

((يا ريال بعدك في ضلالك القديم، ما بتودر عنك هالأوهلم تراها تشتي بــرع..))

قالت ذلك وانغمست في فراش ورائحة الرجل.

كانت سعيدة تأكل الأعشاب التي توصف لها، والتـــي تقترحهـــا بعـــض النساء المجربات اللاتي تجمعهن قهوة الضحى، كانت تحرق الأوراق الطلســـمية التي تتسرّب من المطوع الحبشي الذي تتواصف به النساء ويزكيه الرجـــال الكبار الذين يشتكون علاة من أوجاع المفاصل والركب، كان حلم الحمل يتورّم في بطن سعيدة، وثقل الضيفة الجديدة التي هددها بها أبو حارب يومـــاً، يكبـــر فـــي رأسها، لكن وعيد أبي حارب الذي ما برح يردّده.

((إذا شفتك رحتي عند هالمطوع بدفنك عند باب بيته..)).

جعلها تقف غير عابئة، تتساوى عندها الأشياء.. والأمور..

لم تمض ثلاثة أشهر حتى حلت الضيفة الجديدة كشريك ثالث في البيت الشعبي الذي بدأ يخرج عن صمته المعهود، وقهوة الضحى، ظلّت أحاديثها تـــدور حـــول الضيفة الجديدة التي غالباً ما تكون في حجرتها وحيدة، في حين تصـــر ســـعيدة أنها تظل نائمة حتى ((الضحى العود))غير مكترثة بأي شيء في البيت، معتقدة أن في البيت ((بشكارة)) لها ولهذا ((الشيبه المخرف)) وحين تحنق تردّد..

obeikandl.com

((تتحسبني خادمة أبوها)).

فترد الجارات المخلصات بصوت واحد مواسيات سعيدة كاتمات غيظاً يغلي في صدورهن، متمنيات ألا يسمعن يوماً خبراً من رجالهن ((المكارة)) الذين أرجلهم والقبر وقلوبهم في الحريم.

((وإلا شويبا بو حارب بحرمه كبر صغرى بناته))

أبو حارب وحده كان لا يلوي على شيء، ترك سعيدة تصرخ، تبكي، تلعن، تسترحم، تستجدي، وحين تهمد كفعل أنثى غريزي، تظل أضلعها وحدها تردّد وجيب ما يعتمل به القلب الكسير، تظل تتبع ظلها في ذلك البيت الذي بدأ يضيق ويضيق، وحين تلمح نافذة الضيفة الجديدة وقد انفرجت بحياء تعطيها ظهرها وتشتغل بعمل أي شيء.

كانت تتمناها أن تقطع كل هذه المسافات من الغرور النسوي، لتحدثها عن أبي حارب في غمرة زهوه الجسدي، وكيف تنقضي الساعات الطوال بينهما؟ وبماذا يحدثها عنها؟ كانت سعيدة تتمنى أي حديث ولو بكيد حريمي، المهم أن تحكي هذه البهيمة التي لا تعرف أن ((تشمل خلقها حتى الآن)). وحين التقت عيونهما المتقاصرة عن البوح، شعرت سعيدة بعاطفة الأخت الكبيرة التي تكبر مع المنزل والأخوان، أرادت أن تتحدث غير أنها استفاقت على مجد، قد بعثرته الأيام وأحلام قائد وهمية، دخلت غرفتها يتبعها شبح الزهو والانكسار..

Obeikandl.com

في حين ضلفة النافذة منفرجة بحياء العروس في أسبوعها الأول، والبيت خـــالٍ إلا من صدى رجل يتردّد في أرجائه..

((إن سمعت صوتكن والله لاتبعكن الطريق.. لأصنلكن تستون حريم وتصبحن مثل الخوات..)).

ظلت غرف البيت شبه مغلقة، الآذان وحدها كانت خلف الأبــواب تستصــيخ السمع أو خطوات قادمة، وحين تتعطل لغة الصبر، تخرج الضرتان تعبئـــان رئتيهما بهواء الحوش الكبير وتلوذان بالصمت غير المبرر، وعلى الرغم من أن أبا حارب كان يجمعهما أكثر الأوقات على صحن واحد، إلا أنهما كانتــا تتنـــاولان حبات العيش بأطراف أصابعهما مثل طفل مريض، ترغمه أمه الوجلى على صحن صنعته له وحده.

أبو حارب كان كعادته حين تخرج العروسة الجديدة حاملة الصحون أو ذاهبة تغسل يديها، يهمس في أذن زوجته سعيدة..
ترى سعيدة، هاي زهرة مثل أختك الصغيرة راعيها، علّميها تراك أنـــت الخيــر والبركة..)).

ظلت هذه العلاقة تنمو من غير ماء، وكيفما شاء، لكنها لم تتخط يوماً دهاليز الأسرار، وحين يذهب أبو حارب في رحلات القنص، تظلان تتنلقرانِ كـــدجاجتين

obeikandl.com

هرمتين وكأن الحي خالٍ إلا من ديك وحيد، وحين يرجع تكون لياليه الأولى شكاوي وأوجاعاً.

أبو حارب يمكن أن يغفر أي شيء، غير أنه لا يغفر لامرأته أن تخرج خلف عتبة الباب، ظلّ مغتماً مقاطعاً نساءه، وحين يلححن عليه بالسؤال، يتذكّر طيره((الوجري)) فيعم الصمت الجميع.

باخفج عنكم خفجة حزام

باطير عن بر اليزيره

مالي مقام بعد الإكرام

أشوف في جلستيه ضريره

قال ذلك طالباً منهما أن تظلا كالأختين متعذراً بغياب قد يطول إلى أسبوع بحثاً عن ((طيره الوجري)).

قضى ليلته مع زهرة طالباً منها أن تراعي أختها الكبيرة.. لكن زهرة ردت عليه ((هذي العجوز هي أم السوس والمنكر..)).

((تعرفين يا زهرة كان لابد أن أخيط عينيكي من الجفنين مثلما أعمل مع الصقر حتى يهدأ ويتعود عليّ..)).

زهرة اعتبرت كلامه مزحة ليلية تنم عن غيرة واشتهاء.. ضحكت كطفلة مازال جسدها يتفتق عن أنوثة مختبئة، ظلت تلاعب الطفل الذي بدأ يدبّ على أعتاب

الخمسين بشقاوة لم يعهدها، في حين كان هو يود لو يودعها سر نسله الذي يتمنى أن يظل متعاقبا.

كانت غرفتهما تضج بالضحكات والسعلات وروائح الليلة الممطرة، وحدها سعيدة كانت تشعل النار في البيت.. تخرج رأسها كالحية بين الحين والآخر خوف اللهب وسعيرها الداخلي.

تصافق الأبواب في الخارج أو سقوط أواني المطبخ من على الرف كانت تضحك زهرة، فترسل قهقهاتها بدلال إلى غرفة سعيدة، وحين نهرها أبو حارب، اعتدلت في جلستها وقالت:

((كله من هالعجوز.. دوم تواشي، زهرة سارت، زهرة يات وأنا وحليلي غير بيت أمي وأخواتي ما أروح، الداعية هي أم إيهلان ما تخوز من بيت المطوع..)).

((بس زهرة.. وإلا والله لأخليك تلقطين ضروسك..)).

((بوحارب.. غناتي والله ما ودي أزعلك، لكن شو أسوي معاها، عجزت وعجزت خيلي، ما عندها شيء غير زهرة.. جني ملكله مال أبوها..)).

شد أبو حارب عمامته وعقم أزرار كندورته العربية، جاءته زهرة وأكملت عقم الأزرار، متمسحة بثوبه.

((فديتك بو حارب، ما تزعل مني، جان تريد تعرف منو يظهر منا برع، حط في عباءة كل وحدة منا، البوصلة الصغيرة اللي تنحط في ساق الطير أو جناحه،

عشان تهديك له إذا ما غاب عنك أو طار.. وشوف)).

لمعت الفكرة في ذهن أبي حارب وكاد يلعن أباها، نظر إليها مستغرباً كل هذا المكر والكيد النسائي، وحين رآها كطائر مبلول يقلب رأسه الصغير في الاتجاهات، يتلفت ببراءة نحو الأشياء، استكبر الفكرة على هذا الحجم الأنثوي الصغير، غير أنه لعن أباها في السر وخرج..

استقر أبو حارب في البر القريب، وظلّ موسوساً بالذي قالته زهرة، وبالذي قيل عن زهرة، في حين كانت تتراءى له سعيدة في كتلة السواد كحاجّة أو معتمرة، وبين الإغفاءة والتماع خيوط الضوء وألوان الأفق، كان شبح طائر أحمر مائلاً إلى الصفرة، قصير الذنب، عظيم المنكبين، كبير الرأس، يحلق عالياً، وحين يتوغل في البعد والطيران يكون جناحاه انسيابيين ومنحنيين إلى الأسفل، ثم يهوي حتى يكاد يحل على يد أبي حارب، فيمسح بيده الأخرى الحمرة الجميلة في شعر قمة رأسه، ويبين سواد عينيه، وصفار منخاره، يحط على المنقلة بساقين قصيرتين وفخذين ممتلئين، يسكت تصفق أجنحته يهدئه، يبرقعه، يمسد على عنقه الطويل، فيهتز صدره بارزاً رحباً، يتوازن على المنقلة بأصابعه الغليظة، وكفي قدميه المغموستين بالأصفر، يظهر اللسان أسود مثل فحمة كانت متوهجة ثم رش عليها ماء بارد.

يصيح أبو حارب..((الوجري.. الوجري)).

لكن خيوط الضوء والسماء الفارغة وكثبان الرمال التي تشبه أسنمة الجمال

Obeikandi.com

تغيب هذا الشبح، فيصبح كهالة خيط فضة تتلألأ مع سراب هذه الصحراء الواسعة.

انتبه أبو حارب مع نبض الجهاز اللاسلكي، تحرك تهديه ذبذباته الحمراء، وحين رأى عباءة سوداء تتخطى العتبة وتدلف في سكيك الحارة، تلبسه طائره الغائب.. عندها تحولّ أبو حارب إلى صقر جارح شديد الشراسة، يمتقع حمرة كالدم، ناور عليها خوفاً من طملها الذي قد تقنفه عليه فتكتف أجنحته.. وحين اعتلاها انقضّ عليها غارزاً مخالبه ومنسره، وحين شبع.. طار.. وطار، وعندما حلّ المساء، استقر عند باب البيت كطائر شرس جناحاه كالمقص خلفه.

المحتويات

1- اتهاد ..كليج..بيان 7

2- التعويض 19

3- النفق 27

4- ثلاث حقائب على الرصيف 41

5- شغب القائلة 49

6- طويرة الجنة 59

7- العويد 67

8- جهانجير خان 71

9- المهدى 77

10- تفاصيل باريسية 89

11- خطوة للحياة .. خطوتان للموت 97

12- وجري الأحرار 113

obeikandl.com